خِطاب المرأة اللّغويّ في القرآن الكريم

*هالة حسني بيدس وفاطمة محمّد العليمات**

ملخص

تقوم فكرة هذا البحث على تتبع خطاب المرأة اللغوي في القرآن الكريم، وإلقاء الضوء على مرامي الخطاب والمواقف التي يجري فيها.

ويقصد "بخطاب المرأة " الخطاب الذي صدر إليها، أو صدر عنها، أي ما أجراه الله سبحانه وتعالى على لسانها.

وكان اختيارنا للخطاب القرآني للمرأة، لما للمرأة من مكانة رفيعة؛ إيمانيّة واجتماعية وفكريّة وأخلاقيّة، وقد رأينا أن الخطاب القرآنيّ راعى كينونة المرأة وطبيعتها، هذه المرأة التي سمع الله شكواها وأنصفها وأيدها.

وبما أن مضمون الخطاب اللغوي ومعطياته لا يتجلى إلا من خلال تجليات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية؛ فقد كان منهج الدراسة منصباً على المستويات الثلاثة، والبحث عن الدلالة في هذا الأسلوب القرآنيّ المعجز.

أما النماذج النسويّة موضوع الدراسة فهن: امرأة عمران، السيدة مريم – عليها السلام، وامرأة فرعون، وأم موسى وبلقيس.

وقد كشفت الدراسة عن أساليب خطابية متنوعة للمرأة ارتقت أعلى المستويات اللغوية والبلاغية أسلوبا ومعنىً ولفظاً.

الكلمات الدالة: الخطاب، الخطاب اللّغوي.

المقدمـة

خاطب النصّ القرآني الرجلّ والمرأة على مستوى واحد من الخِطاب التكريميّ، لما للمرأة والرجلّ من قيمة إنسانيّة، ويقرّ القرآن بالولاية المتبادلة بينهما، فالرجل مسؤول عن رعاية المرأة، ويجعل المـــرأة مسؤولة عن رعاية الرجـل، قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[1].

وإذْ يقول: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]. ويؤكد الله تعالى: ﴿**أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ**﴾[3].

وهذا يقودُنا إلى أنّ خِطاب المرأة في القرآن الكريم لا يختلف عن خِطاب الرجل؛ إذ إنّه وحد بينهما في الأمور الأساسيّة المشتركة من الطاعات، وعندما يقول القرآن الكريم: "يا أيّها الناس"، أو "يا أيّها الذين آمنوا" فهذا الخِطاب موجه للرجلّ والمرأة. حيث يتساوى الرجال والنساء في هذا التكليف الربانيّ. لقد خوطب الرجل والمرأة كإنسان يحمل صيغتي التشريف والتكليف كما قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾[4].

ولقد عرض القرآن الكريم نماذج للمرأة وألقى الضوء على جوانب كثيرة من حياتها، فحاول البحث أنْ يطل إطلالة شاملة في مدارها في القرآن الكريم على وجه الفضول المعرفيّ؛ ولوحظ من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عنها قصدًا أو عرضاً، تصريحاً أو إيماءً أنها أخذت مكانها بصفتها إنساناً فاعلاً في الحياة العامة؛ فتحدث عن حقوقها وواجباتها، وأشار إلى أنها مُكلفة تتعلق بها جملة من التكاليف الشرعيّة، فهي: امرأة لها شخصية حرّة ومستقلة، لها حقّها في المبايعة والقيام بحدود الشريعة الإسلاميّة، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[5].

وحسبنا هنا أن نقدم نماذج لصورة المرأة كما قدّمها القرآن الكريم لندرك تلك القيمة الرفيعة والمنزلة العالية للمرأة، فهذا نموذج بِلْقِيس ملكة سبأ التي تضرب مثلا في الحقوق السياسية للمرأة وتطبق الديمقراطية في أبهى صورها. قال تعالى–على لسان بِلْقِيس: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾[6]. نموذج سياسي

* مركز اللغات، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2011/1/25، وتاريخ قبوله 2012/4/23.

© 2013 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

بامتياز، امرأة تمتاز برجاحة العقل وسلامة التفكير. **وتمعّن في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾**[7].

فهذه إحدى ابنتي شعيب، وهي امرأة ذات فراسة نافذة وذكاء حين استطاعت أنْ تتعرفَ إلى شخصية سيدنا موسى – عليه السلام – من خلال موقفه معها عند ماء مدين.

يُقال أفرسُ الناس ثلاثة:

1. العزّيز حين تفرّس في يوسف، فقال لامرأته ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا**﴾.[8]
2. أبو بكر حين استخلف عمر.
3. ابنة شعيب التي قابلت موسى – عليه السّلام – وقالت لأبيها: ﴿ **يا أبت استأجره** ﴾.

أمّا المرأة المجادلة التي سمع الله قولها وأنزل سورة كاملة باسمها فهي "خولة بنت ثعلبة"، التي جادلت الرسول محمّداً – صلّى الله عليه وسلم– في أمر زوجها "أوس بن الصامت" في قضية الظِهار، فما زالت خولة تُجادل الرسول –عليه السّلام– حتى نزلت الآيات الأربع على رسولنا الكريم، بتشريع يحثّ على منع تلك الآفة الاجتماعية، ويؤكد حقيقة مفادها أنّ الزوجات لسن أمهاتكم، لتسلم الأسرة من التصدع، ألا يُعتبر هذا أنموذجاً للمرأة التي سمع الله شكواها؟ قال تعالى: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**.[9]

ولعلنا نقف وقفة عند أُنموذج نسائي فذّ للإيمان بالله، قال تعالى على لسان امرأة فرعون: **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾**.[10] نستشعر قوة الإرادة المتمرّدة على الإغراء والسّلطة، والإصرار على رفض زخارف الدنيا، لنيل محبّة الله وطاعته، وهذا يفند ما يقال اليوم أنّ المرأة مسلوبة الإرادة وعاجزة عن اتخاذ القرار بذاتها.

ويمكن القول إنّ النماذجَ النسويّة التي يقدمها القرآن استندت إلى إنسانية المرأة وطبيعتها، كما أنها حظيت باهتمام القرآن وتشريفه لها. كما في قوله تعالى: **﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾**.[11]

إنّ سورة النساء والبقرة والمائدة والنور والأحزاب والمجادلة والتحريم والطلاق والممتحنة خِطاب ربّاني للأزواج بإعطائهن مهورهن عطية عن طيبة نفس. كما قال – عزّ وعلا– في مجال تحصين المرأة وعدم إهدار كرامتها من أجل حُطام الدنيا الزائل حتى لو كانت أمة**﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾** [12].

ونلحظ هنا قرينة السياق ترتكز على العادات والتقاليد إذْ كان بعض الجاهليين يُكرِه إماءَه على الزنا ابتغاءَ المال فنزلت الآية الكريمة بتحريم إكراههن. وقال تعالى في كتابه الكريم: **﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** [13].

وقد اختير خِطاب المرأة لأنها تُشكّلُ أحد ركني مجتمع يمرّ بمعطيات ثقافيّة واجتماعيّة نستطيع أنْ نلحظها داخل النّص القرآنيّ، لتشكل صورة شاملة لخِطاب المرأة اللّغويّ في القرآن الكريم. كما أنه خطاب وُجّه إلى شريحة مهمةٍ من شرائح المجتمع.

أمّا منهج الدّراسة الذي ارتأيناه فاستند إلى تمييز النصوص المقصودة بها المرأة ووضعها في منازلها من التنزيل ثم معرفة ما يحيط بها من السياق؛ كمعرفة أسباب النزول، وماهيّة المرأة، وما يدور حولها من مرويات وروايات وحقائق تاريخيّة، وهذا يقود إلى إلقاء الضوء على فهم الشخصية من خلال سبر غورها.

ولقد استؤنس في مناقشة "خِطاب المرأة اللّغويّ في القرآن الكريم" بالمعاجم اللّغويّة مثل: فقه اللغة للثعالبي، وكتب التفسير مثل الكشاف للزمخشري والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسيّ، لاستنطاق معاني المفردات والمسائل النّحْويّة والصرفيّة والدلاليّة.

إنّ غاية الإنسان من النظر في نصّ ما هو فهمه، وهذا يتطلب منه النظر في العلاقات المنطوقة أو المكتوبة، ولهذا نتحدث عن المستويات اللّغويّة وننتقل: من المستوى الصوتيّ، إلى المستوى الصرفيّ بإيجاز، إلى المستوى التركيبي(النّحْوي)، وأبرزنا أنّ العلاقة بين المباني المكونة للتركيب لها دور مهم في تأدية المعنى، وفهم العلائق بين المعنى الأصلي والمعنى المراد في المجاز والكناية في السياق القرآني، لأنَ القرآن تركيب لُغوي، بل هو التركيب اللّغوي الأول التي امتزجت فيه العناصر اللّغويّة تمازجاً فريداً حيث تجد اللفظة والسّياق يتبادلان الإبداع والإعجاز.

الخِطاب لغة واصطلاحاً

جاء في لسان العرب تحت مادة خطب أن الخِطاب معناه مراجعة الكلام[14]، والخِطاب إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام، والخِطاب قد يكون شفويًا أو تحريراً، ويعالج موضوعاً بشيء من التفصيل[15]، والخِطاب أيضا هو الكلام اللفظيّ أو النفسيّ الموجّه نحو الفهم والإفهام[16]، والخِطاب عملية اتصال تتم في إطارين: الإطار اللّغويّ، فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة؛ ينتجها مرسل واحد أو عدة متخاطبين كما يحدث في الحوار أو غيره، وإطار سياقي حاليّ يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق، كما أن

الخِطاب كونه حدثا كلاميًا فإنه يتألف من عدة عناصر هي: المرسل، والمستقبل، أو الجمهور أو المتلقي والرسالة أو الموضوع والهدف، ويؤثر هذا الهدف تأثيراً جلّيا في استراتيجية المرسل فيملي عليه اختيارات معينة من بين الأبدال التي يتيحها له النظام اللّغويّ، وقد يؤثر في صورة الحديث وطريقة بنائه، كما أنّه يفسر الكثير من المتغيرات الأسلوبيّة التي ترافق عملية التعبير اللّغويّ"[17].

وقد ورد لفظ الخِطاب في القرآن الكريم في عدّة سياقات:

قال تعالى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾[18]، "**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**" بمعنى فصل الخصام بالتمييز بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾[19]، أي غلبني في المحاجّة، يقال عزّه في الخِطاب وعازّه، غلبه. كما ورد في قول تعالى: ﴿**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**﴾[20]، خِطابا: إلا بإذنه، أي لا يقرر أحد أنْ يخاطبه في رفع بلاء أو رفع عذاب في ذلك اليوم[21].

امرأة عمران

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[22]. فالاصطفاء كان لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عِمْران: أمّا عِمْران فقد كان أبا موسى وهارون؛ وإن كان عمران أبا مريم؛ فإنه اصطفى له مريم لولادة عيسى دون أب، ولم يكن ذلك لأحد في العالم[23]. وعِمْران على الأرجح "أبو مريم". ومن عظيم شأن "آل عِمْران "أن اصطفى الله آل عِمْران على العالمين في الدين والتقى والصّلاح[24]. وجعل سورة في القرآن الكريم باسمهم، لورود قصة تلك الأسرة الفاضلة، وما تجلّى فيها من مظاهر القدرة الإلهيّة لولادة مريم البتول وابنها عيسى عليهما السّلام. وهكذا أراد الله تعالى أن يصطفي ويطهّر، ويصطفي مريم ابنة عِمران على نساء العالمين. وإنّ الاصطفاء من الله تعالى أربع مرّات حتّى يصلَ الاصطفاء إلى مريم.

إذا، هي مريم العابدة الناسكة سيدة نساء بني إسرائيل النقيّة الطاهرة التي نمت في بستان الفضيلة والتُقى، وأُفْردت للعبادة، وعندما شبت كزهرة يانعة حُملت إلى بيت المقدس، وحرص الكلّ على كفالتها، فهي ابنة عِمْران، من أكابر بني إسرائيل، لم يكن نبيًا، ولكنه كان وَرِعًا تقيًا صالحًا، من سلالة داود –عليه السّلام–، تزوج "حنّة بنت فاقوذ" أم مريم وجدّة عيسى عليه السّلام، المرأة الصالحة الورعة العاقلة، ولكنها لم تنجبْ، وطبيعة المرأة أن تشتهي الأمومة وتتمنّاها. فدعت ربّها أن يهبها الولد، وعندما تحرك الحمل في أحشائها، أرادت أنْ تعبر عن عظيم شكرها لله، فنذرت "امرأة عِمْران" أن توقف هذا المولود محرّراً لله، فخاطبت ربّها بضراعة وكان هذا الخطاب هو خطاب امرأة عِمْران قبل الوضع، وهذا يوضح قضية الأمومة في حياة المرأة وأهميتها.

وأرادت "أني نذرت أن أجعل ما في بطني مُحَرّرًا من التقييد للدنيا، وليعبدك ويلزم بيتك"[25]. والمحرّر هو الموقوف لخدمة بيت المقدس من الغلمان، وكان العبد لا تكتمل عبوديته لله إلا إذْا كان كاملاً خالصًا لله من كلّ غِل أو قيد من شِرك. ويُقال: "كلما ازددت عبودية لله كنت محرّرًا لله".

قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [26].

في قوله تعالى: ﴿**ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني مُحَرّرًا**﴾. يأتي المصدر "محرّراً" على زِنة اسم المفعول من الفعل الزائد على ثلاثة أحرف، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَزَّقْنَاهُمْ كلّ مُمَزَّقٍ**﴾[27]. وقوله: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾[28]، في قراءة من فتح الراء، أي كلّ تمزيق، فماله من إكرام.

أي نذرت لك نذر تحرير، ويجوز أن يكون مما انتصب على المعنى، لأن (نذرت لك) حرّرت ما في بطني تحريراً. " وفي هذا استدعاء للولد الذكر لعدم قبول الأنثى أي: ربّ إنيّ نذرت لك ما في بطني فاجعله ذكراً لخدمة بيتك " [29].

وقف أبو عمرو الكسائي على "امرأه" بالهاء دون التاء، و كتبت امرأة بالتاء وقياسها الهاء هنا، (وفي سورة يوسف: 30). وردت "امرأة العزّيز" في موضعين (وفي التحريم: 10) امرأة نوح، وامرأة لوط، وفي (سورة القصص: 9)، امرأة فرعون، وأهل المدينة يقفون بالتاء اتّباعا لرسم المصحف، وهي لغة للعرب يقولون في حمزة: حمزتْ، وأنشدوا:

الله نجّاك بكفّيْ مسْلمتْ من بعدِما وبعدِما وبعدِمتْ[30]

وفي قوله تعالى: ﴿**إذْ قالت امرأة عِمْران**﴾ فالنمط: إذ+فعل ماض بلفظ التأنيث+فاعل مؤنث حقيقي التأنيث+ مضاف إليه. فنرى في هذا التركيب أنّ الفعل إذا كان فاعله مؤنثاً حقيقياً ظاهراً متصلاً بالفعل فإنه يؤنث و"إذْ" ارتبطت بزمن الخطاب، فهو زمن ماضٍ.

"مُحَرّرًا" من أوجه نصبه؛ أن ينتصب على الحال من (ما)؛ والعامل فيه: "نذرت" وقيل: نعتٌ لمفعول محذوف تقديره "غلاماً"، والأوّل أولى من جهة التفسير وسياق الكلام. ويجوز أن يكون في الكلام حذف مضاف تقديره: نذرت لك ما في بطني نذر تحرير.

وروى حُصَيف عن عكرمة ومجاهد: أنّ المحرّر الخالص

لله عزّ وجلّ، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، وهذا معروف في اللغة العربيّة أن يقال: هو حرٌّ، مُحرّرٌ بمعناه. و قال ذو الرمة[31]:

والقُرْط في حُرّة الذفْرَى مُغلَّقة تباعدَ الحبلُ منه فهو يضطرب

أمّا "إذْ قالت امرأة عِمْران" فإذْ منصوب، ويتعلق به وجهان: أحدهما: أنْ يكون متعلقًا بفعل مُقَدّر، وتقديره: اذْكرْ يا محمّد إذْ قالت... والثاني: أن يكون متعلقًا بقوله: "سميعٌ عليمٌ" وتقديره: واللهُ سميعٌ عليمٌ بنيتها حين قالت[32]. "السميع العليم" صيغتا مبالغة للدلالة على قدرة الله عزّوجل ومدى علمه.

وتخاطب امرأة عِمْران ربّها، وتقول: لقد أوجبت ما في بَطني لك ولبيتك "**ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني**". "ربّ" منادى محذوف الأداة، والأصل (يا ربّ) وهي للبعيد، ولكنها إشارة لعلو منزلة الله ورفعته لأنه قريبٌ سمعاً واستجابةً وروحاً، (ونذرت لـ) ثمة ترابط وثيق بين الفعل وحرف الجرّ وهو تفاعل لغويّ دِلالي. "(ونذر) أي أوجب على نفسه تبرعًا من عبادة أو صدقة أو غيرها، أمّا اللام فهي للاختصاص تقصر فعل النذرُ على مجرورها دون غيره"[33]. ومعجميًا، يقال: نذرت لله كذا نذراً ونُذُوراً. (نذر): النّذرُ استدفاع المخوف بما يَعقِدُه الإنسان على نفسه من أعمال البرِّ.

وأمّا (أنذر): الإنذار: الإعلام مع التخويف في مُدّة تتسع التحفُّظ من المخوف، وإن لم تتسعْ سُمّي إعلامًا وإشعاراً وإخباراً، والهمزة فيه للتعدية[34].

"**إنّي نذرت لك**" جاء هذا الخطاب مؤكدا" بـ (إنّ) لحرصها أن تفي بهذا النذر، وصدقها فيه، كما أنّ اقتران "إنّ" بياء المتكلم فيه إصرار وزيادة توكيد وجزم في النذر. (لك) تعني النذر، لك وحدك دون سواك وفيه اختصاص. كما أنّ الجملة الاسمية (إنّي نذرت) تدل على ثبات المعنى واستقراره.

(ما في بطني) أتى بـ (ما) التي لغير العاقل؛ لأنّ ما في بطن "امرأة عِمْران " مُبْهمٌ أمرُه، والمبهم أمره يجوز أن يُعبّر عنه بـ "ما" عند من يرى أنّ "ما" مخصوصة بغير العاقل، أو لأنه لا يعلم ذكرهو أم أنثى. (في بطني) "في" ترسيخ لمعنى الظرفيّة، "أما ذكر (البطن) فهو سائر على سنن القرآن في التعبير عن وعاء الجنين وهذا يتناسب مع عدم علمها بماهية حملها".[35].

أمّا قوله تعالى على لسان امرأة عِمْران: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[36].

يتجلّى في قراءة "**إنّي وَضَعتُها**" التحسر والاعتذار، وهو من كلام أم مريم – عليها السّلام –خاطبت بذلك نفسها تسليًا لها وتسليماً لله، وإقراراً أنّها لم تميز جنس المولود إلا بعد أنْ وضعته "**والله أعلم بما وضعت**"، اعتذرت لربها بجملة اعتراضية بينت فيها أن الله أعلم بالشيء الذي وضعته، وسيقت لتفخيم شأنه والتجهيل لها بقدره، حيث إنّها تجهل ما أودعه الله فيه، وفي قراءة "وضعتْ" بتاء التأنيث الساكنة على إسناد الفعل بضمير مريم – عليها السّلام – وهو من خطاب الباري تبارك وتعالى لها. وفيه تنبيه على عظم قدر هذا المولود، وأنّ له شأنًا لم تعرفه، ولم تعرفي إلا كونه أنْثى، دون ما يؤول إليه من أمور عظام وآيات واضحة.

فلمّا وضعت "امرأة عِمْران" حملها قالت على وجه التحسر والاعتذار والتحزن "**ربّ إنّي وضعتها أنثى**" نجد تكرار هذه الكلمة "ربّ" استمطاراً للرحمة والعطاء. "قال ابن عباس: قالت ذلك لأنّه لم يكن تقبل في النذر إلا الذكور، وهنا تخاطب أم عِمْران ربّها بانكسار، "وليس الذكر كالأنثى". ومعناه: (ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها)"[37].

ويبدو في هذه الآية التفاوت بين فضل الذكر على الأنثى للوهلة الأولى، ليس لأنّها ترى الأفضلية للذكر، بل أنّ الهدف الذي من أجله وهبت أم عمران ما في بطنها هو الانقطاع للعبادة وخدمة المعبد. وقد غلب في ظنها أنها إذا نذرته لله فإنه سيكون ذكراً فلما كان أنثى لحكمة الله يريد منها أنثى لا ذكر وهي الولادة بلا أب.

أما الضمير في "وَضَعتها" فيعود على "ما"، من حيث المعنى، لأنّ الذي في بطنِها أنثى في علم الله تعالى، فعاد الضمير على معناها دون لفظها وقال الزمخشري: "إنّما أنثه حملا على معنى النسمة أو الحَبْلة، أو النفس"[38]. وقال ابن عطية: "حملا على الموجودة، ورفعا للفظ "ما" في قوله: "ما في بطني محرّراً"[39].

وقد أُنث الضمير في "وَضَعْتُها أنثى" لأنه عائد على المولود والتأنيث للمسارعة إلى عرض ما أصاب (امرأة عِمْران) من خيبة الرجاء وانقطاع الأمل في إنجاب الذّكر الذي يصلح لسدانة بيت المقدس. وفي قراءة "وضَعْتُ" التاء لها محل إعرابي "فاعل"، وفي "وضَعَتْ" التاء لا محل إعرابي لها وإنما هي علامة على الفاعل. "**إنّي وضعتها أنثى**" توكيد والتوكيد للرد على اعتقادها الباطل، [40] و"أنثى" حال مبيّنة وهذا يدلّ على خلاف ما توقعته، فكان البيان مهماً في هذا الشأن، أو "أنثى" بدل من الهاء المفعول.

وفي قولها " **واللهُ أعلمُ بما وضعت**" التفات من الخِطاب إلى الغيبة، وهذا من موطن البلاغة، إذْ لو جرت على مقتضى قولها: "ربِّ" لقالت: "وأنتَ أعلمُ".

"والله أعلمُ بما وضعت" يحمل قرينة يفهم منها إيمانها الكبير بقدرة الله وأنّه علاّم الغيوب والواو استئنافية. انظر إلى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كلّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾[41].

ومن لطائف البلاغة في قول أم مريم "**والله أعلم بما وضعتْ وليس الذكر كالأنثى**" جملتان معترضتان لتعظيم الأمر الذي حدث ورفع منزلة المولود[42]. والجملة المعترضة، أجنبية عن مجرى السياق النّحْوي، فلا صلة لها بغيرها ولا محل لها من الإعراب، وإنّما هي تعبيرٌ عن خاطر طارئ، قُصد منها تنبيه إلى ما يريد المتكلم أن يلفت إليه انتباه السامع[43]. وذلك أن حكمة الله تقتضي أنْ تتم المعجزة بفتاة مصطفاة تحمل بلا أب تلد ولداً.

والجدير بالذكر، أنّ الأنثى في ذلك العهد لا تسمى بالمرأة إلا إذْا كانت مستقلّة بذاتها عن وليها، سواء أكان زوجاً أم أباً، لذلك قيل: "امرأة عِمْران" في هذا النذر دِلالة على أنّ نذرها كان من نَفْسِها، ولم يكنْ عن رغبة من زَوْجِها.

وفي قولها "**وليس الذكر كالأنثى**" "ليس" تدخل على الجملة الاسميّة، ولكن يرى المفسرون أنّها بدأت بذكر الأهم في نفسها ولم تقلْ (وليست الأنثى كالذكر). كما أنّ الجمل الاسميّة فيها ثبات المعنى واستقراره. ويذهب بعض النحاة إلى أن "ليس" مثل "ما" مخصوصة بنفي الحال، والصحيح أنهما ينفيان الحال والماضي والمستقبل. أي "ليس" تدل على مطلق النفي في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل[44].

أمّا أسلوب التوكيد في القرآن الكريم فمتعدد، ومن الأدوات التي تختص بالأسماء للتوكيد "إنّ"، وقد تدخل "إنّ" للدلالة أن الظنَّ قد كان من المتكلم، وذلك إذْا فعل المخاطب شيئا، وكان ينتظر غير ما حدث، فيأتي بالتأكيد لأنه أتى على خِلاف ما كان يُظنُّ أو يُعتقدُ، وهذا كما في قوله تعالى في حكاية أم مريم – رضي الله عنها– حين قالت: "**ربِّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلمُ بما وضعتْ**"، وكذلك قوله عزّ وجلّ في حكاية نوح – عليه السلام – "**قالَ ربِّ إنّ قَوْمي كَذّبونِ**" [45].

وهكذا، فقد تكررت "إنّ" ثلاث مرات في الآية الكريمة "**إنّي وضعتها**"، و"**إنّي سميتها مريم**"، ففي الأولى والثانية كان خبرهما فعلا ماضياً، وفي الثالثة عدلت عن الماضي إلى المضارع "**وإنّي أُعيذُها**" والمقصود بها الديمومة، ديمومة الاستعاذة والتجدد بخلاف الأخبار السابقة "وَضعتُها، سَميتُها" فإنها انقطعت، وهذا من لطائف البلاغة في النصّ القرآنيّ.

"**وإنّي سميتُها مريم**"، ذكرت حنّه تسميتها مريم لربّها، لأنّ مريم في لغتهم العابدة فأرادت التقرّب إلى الله، والطلب إليه أنْ يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها وأن يصدق ظنّها بها، كما نجد تقديم المسند إليه للتخصيص يعني أنّ التسمية مني لا يشاركني فيها أحد [46].

"**وإنّي سَمَّيْتُها**" الضمير (الهاء) يعود على الأنثى،والواو عاطفة بهذه الجملة على ما قبلها والجملة "**وإنّي سمّيْتُها مريم**" معطوفة على جملة "إنّي نذرت" وهي في محل نصب مقول القول. والضميران في "أُعيذها"

و"ذريتها" يعودان إلى مريم "وذُريتّها" أي عيسى عليه السلام. و"سمّى" من الأفعال التي تتعدى إلى واحد بنفسها، والثاني بحرف الجرّ. ويجوز حذفه، والإثبات هو الأصل.

"**وإنّي أُعِيذُها بك وذريتها**" خطاب يتضمن عناية بالغة بالمولودة وتحصينها وذريتها من الشيطان الرجيم، واستخدام الفعل المضارع "أُعيذُها" يصلح للزمانين الحال والمستقبل كما يقول البصريون. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[47].

ونستدل بقول رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – في عصمة مريم وابنها عليهما السّلام من الشيطان الرجيم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "سمعت رسول الله – صلّى الله عليه وسلم – يقول: "**ما من مولودٍ يُوْلَدُ إلاّ نَخَسَهُ الشيطانُ، فيستهلُّ صارخًا من نَخْسِةَ الشيطان إلا ابنَ مريم وأمّه**"[48].

إذاً حصن الله المولودة من الشيطان الرجيم وحفظها وتقبّلها بقبول حسن. " **فتقبّلها ربّها بقبول حسن**" استجابة لطلب امرأة عمران "**فتقبل مني**" ما نذرته" لهذا جاء خبر الجواب من الخالق سبحانه جامعاً بين التقبّل والقبول، ولفظة "التقبُّل" من حيث حروفها ومبناها نجدها أكثر معنى، فكأنها أرادت الحصول على أقصى درجات القبول والثواب" [49]، كما تفيد معنى القبول المتكرر والمتصل.

فتقبل اللهُ مريمَ العابدة وربّاها تربية كاملة، ونشّأها تنشئة صالحة وكفّلها زكريّا، وضمّها الله تعالى إلى زكريّا وجعله كافلا لها، وضامنا لمصالِحها. و كان المشهد رائعاً في أثناء الاقتراع معبراً عن ورع هذه الفتاة وتقواها. حرص الكلّ على كفالة مريم، ولِما لا فهي العابدة التّقية، بنت الطُّهر. واختلفوا فيما بينهم فاقترح أحدهم أنْ يقترعوا بإلقاء الأقلام، وكان زكريّا هو الكافل " **وكفّلها زكريّا** ". وهذا دليل على أنّ القرعة جائزة شرعًا، وكان الرسول – عليه الصلاة والسلام – يقرع بين زوجاته إذْا أراد سفراً.

وهكذا، عندما بلغت مريم مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبدُ الله، "فالمحراب" هو غرفةٌ في بيت المقدس، لا يُصْعد إليها إلا بسلّم أو هو المسجد؛ وكانت مسَاجدهم تُسمى المحاريب، وسُمِّي محراباً لأنه محلّ محاربة الشيطان والهوى"[50]. والمحراب هو المسمى عند أهل الكتاب بالمَذْبح.

أمّا زكريّا النبي الذي عُني بها فيجدُ العَجب العُجاب؛ يجد رزقاً لم يأته لها، قال تعالى: ﴿**كلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا** ﴾[51]، " كلّما" تشير إلى تكرار الفعل، ودخول زكريّا عليها مراراً، كما تدل على تكرار وجود الرزق.

أمّا الرزقُ فالمقصود به الفاكهة والطعام. قال مجاهد: "وجد زكريّا عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف"[52]. وجد عندها رزقاً " رزقاً " نكرة تفيد الكثرة، قال تعالى – على لسان زكريّا: ﴿ **قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[53]. وهذا الخِطاب ورد على لسان زكريّا، والخِطاب يهدف إلى إظهار التعجب والاستغراب. "**أنّى لَكِ هَذَا؟**" "أنّى" ظرفٌ بمعنى من أينَ لك هذا؟ وهو سؤال عن الكيفية، أي: كيف تهيأ لك هذا الرزق؟ "**قالت هو مِنْ عِندِ الله** " أي هو رزق أرسله الله سبحانه وتعالى في هذا الوقت ولا يقدر عليه إلا الله. وإذا تأملنا هذا الرد البليغ بدت لنا حميميّة القرب من الله، والتيقّن من قدرته.

ولدى إنعام النظر في هذه الآية الكريمة: "ق**الت هو من عند الله**"، نجد عُبّر بالجملة الاسمية لمزيد من التحقق والتثبت.

السيدة مريم عليها السلام

قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلم – "**كَمُلَ من الرجال كثيرٌ ولم تَكْمَل من النساء غير مريم بنت عِمْران، وآسِية امرأة فرعون، وإنّ فضلَ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**"[54].

"مريم بنت عِمْران" من هذه المرأة التي نالت تلك المكرمة، وهذا التشريف من نبينا محمّد – صلّى الله عليه وسلم–؟ من المرأة التي كرّمها الدين الإسلاميّ وأجلّها؟ ولماذا؟

هذا التساؤل يجيب عنه القرآن؛ فهي خيرُ نساء زمانها، ومريم في الجنة كما شهد النبي محمّد – صلّى الله عليه وسلم.

جرى القرآن الكريم في ذكره للنسوة جميعهن مجرى الكناية لا التصريح فيما يتعلق بأسمائهن، بحيث لم يصرح باسم امرأة واحدة سوى مريم ابنة عِمْران – رضي الله عنها – حيث ذكر اسمها أربعاً وثلاثين مرّة في القرآن الكريم[55]. وذلك تكريماً لها، وكرّمها القرآن أكثر مما كرمتها الديانات الأخرى، ومن ذلك قوله تعالى:

: ﴿ **يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [56].

: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ [57].

: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[58].

: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾ [59].

: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾[60].

: ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** ﴾ [61].

: ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾ [62].

الخِطاب القرآني الموجه إلى مريم كما في قوله: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾، ومقصده حمل البشرى بمولود يتم بكلمةٍ من الله دون أب. "اسمه المسيح عيسى بن مريم". "ولقبه المسيح، ونسبه إلى أمّه تنويهاً أنها تلده بلا وساطة أب"[63]. فهو خِطاب خاص في حالة خاصّة ورؤى خاصة فريدة، خِطاب حازم وصارم موجه إلى مريم يحدد معالم الطريق ويمهد إلى حقبة تاريخيّة حافلة.

وحسب مريم أن يحاورها الله على لسان ملائكته حيث سألت: ﴿**قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قال كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**﴾ [64]. فقال مجيبًا عن سؤالها: "**كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ**". فكان الردُّ سماويًا مُدويًا مُقنعا للنفوس وحاسماً في الوقت ذاته. أي أنّ كلامك يوافق ما قلناه، ولكن ارتأينا أمراً وإنْ بدا لك مستحيلا إلا أنه هَيّن على الله، ولا بدّ من امتثاله، وهذا يشير إلى أنّ أي شيء في قدرة الله هين، دون أسباب أو مقدمات، حتى لو خالف النواميس والقوانين الحياتيّة. هذا حُكمُ الله "وكان أمْرًا مَقْضِيًا"، عندها توقف الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء لتبدأ مرحلة جديدة في حياة مريم عليها السّلام، بأمر الله، قال تعالى: ﴿**قل إنّ الأمرَ كُلَّهُ لِلله** ﴾.[65]

قال تعالى:﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[66]

"إذْ قالت الملائكة يا مريمُ إنّ الله يبشرك بكلمة منه" اشتقاق "بشر" من البُشْرى، والبِشارة، وإذا كانت البِشارة مطلقة فلا تكون إلا بالخير، أمّا إذا قُيِّدت فتحمل الخير والشرّ معاً وردّه بعض العلماء إلى أصله الحسيّ، فقال: إنّ أصله من البَشْرة".

فقولنا: بشّرت الرجلّ يعني: أخبرته بخبر سارّ بسط بشْرة وجهه، وذلك أن النفسَ إذْا سُرَّت انتشر الدّم فيها انتشار الماء في الشجر. وعلى هذا تكون البُشرى والبِشارة بالرحمة والجّنة

والمغفرة والولد، وما إلى ذلك من وجوه الخير، فإذا كان مجرور الباء غير الخير نحو قوله تعالى: "**فَبَشِّرْهُم بعذابٍ أليمٍ**"[67]، فتكون للشرّ والعذاب. وهذا من باب كسر التوقع لإحداث صدمة للمتلقي.

وقوله تعالى على لسان مريم في سورة عمران: "**قالت ربّ أنّى يكونُ لي ولدٌ**"، وفي هذا المقام، فقد سأل زكريّا ربّه: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾[68]. وسألت مريم ربّها: "**أنّى يكونُ لي ولد**"، فأجاب اللهُ زكريّا بقوله تعالى: "**قالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ**". وأجاب مريم بقوله تعالى: "**قَالَ كَذلِكِ اللهُ يخْلُقُ ما يَشَاءُ**".

"وأما اللفظ (يَفعَلُ) في حالة زكريّا فإنّه لا يثير خواطر سيئة لأنّ زكريّا وامرأته زوجان فلا شبهة في ذلك. لأنّ الفعل هنا يناسب مقام وجود الزوج والزوجة، وإنْ كان وجود العقم والشيخوخة مانعاً للإنجاب،ولكن في حالة مريم لم يُعبّر بلفظ (يفعل) فهذا اللفظ غير مناسب في السياق، فَحَمْلُ مريم كان بالتسخير والإخصاب من فعل الله وقدرته، لذلك جاء الفعل (يَخْلُق) ليدل على إبداع الخالق"[69]. كما أنّ استخدام الفعل (يَخْلُق) وإسناده إلى الضمير الراجع إلى الله تعالى لا يثير لدى السامع أي معنى آخر. وهذا فيه إيحاء حسن بالألفاظ، وقدرة المفردات المعجميّة على أن تكون مؤشرات أسلوبية واضحة تدعم المعنى وتثبته.

ولا ننسى أيضا أنّ زكريّا أصلا سأل الله عزّ وجل أن يهبه "وليّا" وبُشر بـ"يحيى" فجنس المولود محدّد مسبقاً من الله سبحانه، وفي حال مريم (الولد) أي ما تجري عليه سنة الولادة من ذكر أو أنثى مستهجن بحقها. إذْ ليس لها زوج، ولكنّها إرادة الله تجعل كلّ شيء ممكناً.

ومما يتضح فيه الجانب التركيبي ما ورد في الآية الكريمة: "**إنّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح**" عود الضمير على المعنى أي الضمير "في اسمه" يعود على معنى "كلمة" ومعناها مذكّر إذْ المعنى يبشرك بمكوّن أو مخلوق. كما أنّ التوكيد بـ "إنّ" من دعائم ثبات المعنى واستقراره. ولقد سُمّي عيسى "بالكلمة"، لأنه تكوّن في رحم أمّه من غير زوج بل بكلمة من الله وهو قوله: "كُنْ" وذلك كناية عن إرادته التكوينيّة"[70]، وندلل على ذلك أن الضمير في "اسمِهِ" مُذكّر باعتبار المعنى، فإنّه جعل "الكلمة" هي عيسى، وهو اسمٌ أعجمي ممنوع من الصرف ويدل على "المسيح ابن مريم".

أمّا جمال النصّ القرآني فيتجلّى في قوله تعالى: "**إذْ قالت الملائكة**" أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له وتوقيرًا ويسمى "المجاز المرسل".

أمّا قوله تعالى في سورة مريم:"**قالت أنّى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ**" فهنا الخِطاب يحمل معنى الاستفهام والتعجب، لأنّ الحمل بهذا الطفل كان موطن تعجب واستفهام واستثقال وخرق للناموس الكوني في سنن الإنجاب، وأمّا قوله: "**قال كذَلِكِ اللهُ يَخلقُ ما يشاءُ**" فكسر الكاف لأنها مخاطبة امرأة، وإذا كانت الكاف للرجل فُتحت. " قال كذلك" خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك. وقال للمؤنث في خطاب امرأة العزيز في سورة يوسف: "**واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إنّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئينَ**"[71].

وفي الجانب المعجميّ ما ورد في قوله تعالى: "**ولم أك بغيا**" أي فاجرة تبغي الرجال، يقال: "بغت الأَمةُ"، تبغي بَغْيًا، فهي بَغيٌّ وبَغَوٌّ، و(بغيّ) وزنه فعول عند المبرد؛ إذا اجتمعت واو وياء، وادغمت في الياء وكُسر ما قبلها لتناسب الياء، كما كُسرت في عِصيّ ودِليّ"[72]. وقيل لمّا كان هذا اللفظ خاصاً بالمؤنث، لم يحتج إلى علامة التأنيث، فصار كحائض وطالق، ويقال للرجلّ: باغٍ. كما أنّ تركيب الجملة المنفية بـ لم "ولم أكُ بغياً" تأتي: لم +فعل مضارع ناقص مجزوم وحذف آخره لغير علّه سوى التخفيف اللفظي ليتناسب مع سياق استهجان مريم في قولها: "أنّى" استفهام تعجبي، " ولم يمسسني " نفي مطلق، كل هذه المعاني التي تنقص القيم في النفس البشرية كانت في بال مريم حين قالت: "ولم أك بغياً" تأكيد النفي، ويقول طنطاوي هو من باب التخصيص من بعد التعميم[73].

أمّا قوله تعالى على لسان مريم: "**ولم يَمْسَسني بشرٌ**"، فيعتبر من ضروب الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم، فالكناية من أقوى أساليب البلاغة، ولقد كنى عن الاتصال بـ (المسّ) وذلك دون أن يخدش الحياء أو الذوق، وذلك نوع من السمّو والرفعة لهذا القرآن المعجز. كما في قوله تعالى: ﴿**لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾" **وقال تعالى: ﴿وإن طَلَّقْتُموهُنَّ من قبل أن تَمَسُّوهُنَّ**﴾[74].

ويتابع الخِطاب القرآني مريم في مدارها وفضاءاتها، حين جاءها المخاض، فانتبذت ناحية المشرق، وانفردت لتلد طفلها المبارك. "ويقال اعتزلت وجلست نُبذة ونَبذه، أي ناحية مشرق الشمس؛ لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيراً مما يلي المغرب وذلك ما ذُكر عند العرب[75]، ونبذ: النّبذ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك وكلّ طرح: نبذٌ، وانتبذ فلان أي ذهب ناحية[76]، أو أنّها معتزلة عن الناس في مكان يلي شرقي بيت المقدس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا**﴾.

وهكذا، مريم أمّ وحيدة تضع وليدها المبارك، بغير قانون الحياة دون زوج، ولكن هذا شأن الله، لتعليم الخلق، أنّ الخالق ﴿**إذا قَضَى أمرًا فإنما يقولُ له كُنْ فَيَكُونُ**﴾[77]. فألجأها ألم الطلق إلى ساق نخلة يابسة جافة لتعتمد عليها في أثناء

الولادة، ﴿**فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾[78].

وينتقل الخِطاب الإلهي لمريم ليرشدها إلى وسيلة تأمين الطعام في هذه الصحراء القاحلة، وظل هذه النخلة اليابسة، ولكن قدرة الله تحولها إلى نخلة مثمرة لتأكل مريم وتقوى على الحدث الجلّل.

في قوله تعالى: "فأجآءها المخاض" وزن "أجاءها" أفعلها، وأصلها (أَجْيَأَها)، والفاء للتعقيب، لكن تعقيب كلّ شيء بحسبه.

ومعنى "فأجآءها" أي جاء بها تارّة، فُعدِى جاء بالياء وتارة بالهمز، أي معنى الإلجاء، وقرأ الجمهور "فأجاءها" أي ساقها، "فأجاءها" الأصل في (جاء) أن يتعدّى لواحد بنفسه، فإذا دخلت عليه الهمزة كان القياس يقتضي تعدّيه لاثنين. وقال أبو البقاء: الأصل (جاءها)ثم عُدّي بالهمزة إلى مفعول ثانٍ، واستعمل بمعنى ألْجَأها[79].

أما قوله تعالى " **فإمّا ترَينّ** " فإنّ شرطيّة، وما زائدة والنون نون التوكيد المشددة اتصلت بالفعل وأصل ترَينّ (ترأيينّ) نقلت حركة الهمزة إلى الراء، أي فإن رأيت أحداً من بني آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته، فأشيري إليهم أنّي أوجبت على نفسي لله صمتاً ألا أكلم أحداً[80].

وإذا تمعنا الآية الكريمة "فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قالت..."، نجد أنّ هناك حذفاً، وهو حذف حرف العطف حين يتلوه فعل ماض من مادة القول؛ وهذا الحذف كثير في القرآن الكريم[81]، كما في قوله: ﴿**إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ**﴾ [82]، أي "وقالوا"، وقوله في سورة يوسف: ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا**﴾ [83].

أمّا قول مريم "**قالت يا ليتني مِتُّ**"، فليت للتمني وهي ضربٌ من ضروب التّرجي، وما دام التمني هو حصول شيء، فإن خبرَها لا يكون إلا في الاستقبال، (وليت) في هذا السياق خبرها ماض مثبت، كما في قوله تعالى: ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ [84]، وقد تأتي ليت وخبرها مضارع منفي كما في قوله تعالى: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾[85]. ويدل التمني هنا على طهارة مريم على الرغم من تسليمها بإرادة الله وحكمته. "وكنت نسياً منسياً"، "نسياً" خبر كان، و"منسياً" توكيد، نسياً منسياً جناس ناقص[86].

وهكذا، لم يكدْ عيسى يولد حتى خاطب أمّه بقوله (لا تحزني). إذْاً، ولدت مريم عيسى وهي وحيدة في عزّلتها دون طعام وشراب، فماذا تصنع؟

وسرعان ما شملها الله برحمته وأدركها بلطفه ورعايته، فسمعت صوتاً يطيّب نفسها ويذهب وحشتها "**ألا تحزني**"، فقد تولى الله حمايتك وكفل رزقك فهذه نخلة قد أثمرت وذلك نهر قد جرى ماؤه، وهذا غلام "رفيع القدر عالي الشأن فمثلك لا يَحْزنُ"[87].

ومن المفردات المعجميّة (سَرِيًّا) ولها دلالتها الأسلوبية، والمراد بها النهر الصغير، ويناسبه "**فكلي واشربي**"، وقال ابن عباس: "السَّري" النّهر، وسمي سرياً من سرى يسري؛ لأن الماء يسري فيه، وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب مِنْه، وسئل الرسول – صلّى الله عليه وسلم – عن "السَّري"؛ فقال: هو الجدولُ.

وقال لبيد[88]:

فتوسّطا عُرْض السَّريّ فَصَدّعَا مَسْجُورةً متجاورًا قُلاّمها

وقيل هو نهرٌ قد انقطع ماؤه، ثم جرى وامتلأ تكريماً لمريم وتعزيزاً لكراماتها. ولقد ذكر القرآن الكريم أنّ ولادة مريم كانت تحت نخلة في خلاء، في مكان دافئ، وذِكْر نخلة لا يمنعُ من وجود نخل آخر حولها وأنها لم تكن النخلة الوحيدة، وذلك ليستر النخيل مكان مريم عند الولادة، ويُسْتَشفُ أنّ النخلة أعطت مريم الظلّ والستر والطعام. والحري ذكره أنّ القرآن الكريم عدّ النخلة شجرة مباركة، فذُكِرت في اثنتين وعشرين آية وأنها من طعام أهل الجّنة"[89]. فإنما ذلك تنويه بعظمة القيمة الغذائية في ثمرة النخل، لما تتميز به عن غيرها من أنها غذاء كامل فهي تغني عن كل غذاء، إذ تحتوي على كل العناصر الضرورية لحياة الإنسان وسلامة جسمه. وقال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – في فضل النّخلة وقيمتها: "**أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكنْ رطب فتمر، وليس من الشّجر شجرةٌ أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم ابنة عِمْران**"[90].

والعلم يؤكد هذا الإعجاز القرآني والنبوي، فالرطب يساعد على تسهيل الولادة مستنداً إلى قوله تعالى: "**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقط عليك رُطَبًا جنيًّا**"، والخطاب خاصّ لمريم أي حَرِّكي جذع النخلة، والجذع: ساق النخلة اليابسة، ولترى مريم آية معجزة أخرى في إحياء موات الجذع، وتلك كرامة أخرى لها.

إذاً، تؤمر مريم بهزّ الجذع، ومقصد الخِطاب هنا تأكيد

رعاية الله لها في كلّ خطوة من خطواتها، وتثبيتها في هذا الأمر الجلّل، فالجذع لا سعف عليه ولا غصن، ولهذا لم يقل تعالى هُزّي "بالنخلة".

وهل تستطيع مريم الهزّ، فالجذع لا يمكن هزّه، ولكن ليعلم الخلق أنّ الخالق قادرٌ، ويهيئها لرزق جديد وتشريف جديد.

أمّا الفعل"وهُزِّي" فهو من الفعل "هَزّ" والهزُّ التحريك الشديد، هزّه يهزّه هزّاً، وحرف الجرّ "إلى" يتعلق بـ (هُزِّي) وفي قوله "هُزِّي" ضمير الفاعل الياء، وقد تعدى الفعل إلى حرف الجرّ. ونظيره قوله تعالى: "**واضممْ إليك جناحك**" [91] وقوله تعالى: "**أمسك عليك زَوْجَك**"[92]. "وذكر الألوسي إلى أنّ الفعل ضُمّن معنى الميل، لذا عُدّى بـ "إلى"، وجعل الباء للاستعانة، لذا نُزّل منزلة اللازم"[93].

ولكن الخِطاب تضمن إرشاد مريم بأنّ تباشَر الهزّ ممسكة بالجذع، ملتصقة به، وهذا يعني أن الباء للإلصاق أكثر منها للاستعانة. (وبجذعِ النّخلة) أورده ابن هشام في مغنى اللبيب شاهداً على زيادة الباء في المفعول به. وقد تكون الباء زائدة للتوكيد: كما يقال: خذ بالزِّمام، وأعط بيدك، وكقوله تعالى: "**فَلْيَمْدُد بسبب إلى السماء**"[94]، ويرى المفسرون أنّ الباء تزاد في كثير من الكلام، نحو قوله: "**تُنْبِتُ بالدُّهْنِ**" أي: "تُنْبِتُ الدُّهْنَ". ويجوز أن تكون على معنى: "هُزِّي رُطَبًا بجِذْعِ النَّخْلة"، والباء تفيد معنى هز أدنى شيء يمكنها أن تهزه من الجذع حتى لو كان شيئا من خيوطه، وهو من باب اتخاذ الأسباب والتوكل على مسبب الأسباب.

وأمّا الخِطاب القرآني "فيأمرها أن تأكل من الرطب الجني، وتشرب من الماء العذب "**وتقرّ عيناً**" يعني بالولد أي طيبي نفسا بالولد.

"قال الأصمعي وفيه ثلاثة أوجه: (أحدهما) جاء يقرّ عينيك سروراً، لأنّ دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة (الثاني) طيبي نَفْسًا، (الثالث) تسكن عينيك[95].

"وقَرِّي" أمرٌ من قرّت عينه تقِرّ بالكسر والفتح، قُرّةً وقُرّةً وقُروراً. مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والراحة لأنّ العين إذا رأت ما كانت متشوقة إليه، سكنت ولم تنظر إلى غيره.

(وقرِّى عيناً) "عيناً" نصب على التمييز منقول من الفاعل، إذْ الأصل: لتقرّ عينُكَ. والعامّة على فتح القاف من "قَرِّيْ" من قرّت عينه تقرُّ، بكسر العين في الماضي، وفتحها في المضارع.

وفي وصف العين تأويلات؛ أحدهما: أنه مأخوذ من " القُرّ " وهو البرْد، وذلك أنّ العين إذا فرح صاحبها كان دمعها قارّا أي بارداً، وإذا حزن كان حاراً، ولذلك قالوا في الدعاء عليه: "أسخن الله عينه"، وفي الدعاء له: "أقرّ الله عينه".

وقول أبي تمّام:

فأما عيونُ العاشقين فأُسْخِنت وأمّا عيونُ الشامتين فَقَرّتِ[96]

وفي هذا المقام، قال تعالى في شأن موسى عليه السلام: "**فَرَجعْناكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرّ عَيْنُها ولا تَحْزَن**"، "وتقرّ عينها" أي تهدأ وتسكن، والذي يهدأ النفس والجسم، فإطلاق العين عليهما "مجاز مرسل" علاقته الجزئية"[97]. فقد ذكر الجزء وهو العين وأراد الكل وهو الجسم والنفس.

(فقُولي) أي مهما رأيت من أحد "**فَقُولِي إنّي نَذَرْتُ للرّحْمنِ صَوْمًا فَلنْ أُكَلّمَ اليوم إنْسِيّا**". أُمرت مريم بالصوم عن الكلام وشرف الأمر من شرف الآمر، والأمر بالصوم عن الكلام و"الصوم" لغة المنع والحبس، أي بالصمت ليقوم ولدها بذلك فتكون المعجزة الباهرة، أو أنّها امتنعت من الكلام ليتكلم عنها ولدها فتكون فيه براءة ساحتها، وقد يكون الانقطاع عن الكلام ضرباً من ضروب العبادة. "**فلن أكلّمَ اليوم إنسياً**" "لن" من الأدوات التي تدخل على الفعل فينتصب بعد أن كان مرفوعاً، وتأتي لنفي الزمان في المستقبل، وقد قُيِّد منفيها باليوم "ولنْ" أفادت معنى التوكيد و التشديد.

وإذا تمعنا في كلّمة "الرّحمن" التي وضعت في سياق الآية الكريمة نجدها تحمل معنى مُعْجمياً "أنّ النذر أينما يكون للرحمن" وليس للرحيم[98]، على الرغم من أنّ اللفظين يشتركان في أصل الاشتقاق إلا أنهما يختصان باستعمالات خاصّة. الرحمن يستوي على العرش"**الرّحمن على العرش استوى**"[99].

اتسمت صيغ المبالغة بمخزون دلالي عميق يتكافىء مع دقة التشكيل اللغوي للصيغة، وهذا ما نلحظه في اسمي الجلالة "الرحمن" "الرحيم". واللفظان مشتقان من الرحمة إلاّ أنّ الصيغة الاشتقاقية لكلٍ منهما حملت في ثناياها بُعدا دلالياً، "فالرحمن" تضمنت معنى عظيم الرحمة؛ لأن "فعلان " صيغة مبالغة.

أما صيغة "الرحيم" فتضمنت معنى دائم الرحمة؛ لأنّ فعيل تستخدم في الصفات الدائمة فكأنه قيل:" العظيم الرحمة الدائم الإحسان"[100].

ويقول الإمام الطبري منوّهاً بالخواص الدلالية "للرحمن"، و"الرحيم": "الرحمن" موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه"، وأما "الرحيم" فموصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه، كما قال تعالى: " **وكان بالمؤمنين رحيماً**"[101]

كما أنّ الرحمن على وزن (فعلان) وهي صيغة في العربية دالة على التحول والتبدل إذْ إنّها صفة لا تتسم بالديمومة مثل عطشان' ريّان...، صفات سرعان ما تتحول إلى ضدها عند زوال السبب، فالعطشان إذا ما شرب أصبح ريّان، لكن ريّه لن يدوم وهكذا، في حين أنّ "الرحيم" صفة على وزن فعيل وقد

أُختلف فيها فقيل إنّها صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبات وقيل إنّها صيغة مبالغة، وقد تجمع بين الاثنتين فهي دالة على الثبات في اتصاف الذات الإلهية بالرحمة، وهي رحمة تتجاوز الرحمة المألوفة، وتدلّ على المبالغة في اتصافه سبحانه بها.

وتدل كلمة الرحمن بصياغتها أنها محيطة بالخلق شاملة لهم، لكنّ هذه الرحمة لا تدوم إلا إذا استحقها العبد بحسن تعبده لربّه عزّوجل ودخوله في زمرة المؤمنين الذين يدخلون في كنف "الرحيم" الذي ينعم بالرحمة على أوليائه.[102]

وهكذا، عادت مريم إلى قومها تحمل وليدها، فأشارت إلى عيسى أن كلّموه أو اسألوه، ولكن لغة الإشارة لم تشفعْ لمريم عند أهلها وهذا ما بينه الخِطاب الموجه لمريم على لسان قومها ﴿**قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾[103]. وإنّ قولهم كان متوقعاً لهذا أمرت مريم بالصوم عن الكلام. "**يا أخت هارون**" استئناف لتجديد التعيير، وتأكيد التوبيخ.

ويتواصل الخطاب لينقل بشرى الاصطفاء والتميز في قوله: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [104] هذا خِطاب خاصٌ لمريم تكريما لها بالاجتباء والاصطفاء، وبشرى جلّيلة كريمة من لدن العلي القدير اصطفاء في عالم البشرية كلّه. فهي المصطفاة المطهّرة القانتة المحصّنة أمّ المسيح عليه السلام.

إنّ المحسنات اللفظية تعتبر قيما صوتية أحسن النصّ القرآني إظهارها والتعامل معها. ففي قوله تعالى: "اصْطَفاك"، "أولا: بمعنى "اخْتارك" والثاني: "اصْطَفاك" بمعنى "فضّلك"، فالاتفاق في اللفظ دون المعنى"[105]. والثالث: الطهر، والرابع: ليس فقط الاصطفاء ولكن على نساء العالمين، وهذا يدلّل على رفعة السيّدة مريم ومنزلتها في القرآن الكريم.

فالاصطفاء الاختيار، وأصله أخذ صفوة الشيء كالاستصفاء، وكرر اصطفى إما توكيداً، وإما ليبّين من اصطفاها عليهن، وقال الواحدي: "فالاصطفاء الأول عموم يدخل فيه صوالح النساء، والثاني اصطفاء بما اختصتْ به من خصائصها.[106]

إنّ تكرير اللفظ باختلاف المعنى يظهر توازنا وتناسقا في البنى التركيبية للنصّ، "**واصطفاك وطهّرك واصطفاكِ**". تكرير لفظ "اصطفاكِ" و"مريم" هو باب من أبواب الإطناب، ويأتي لزيادة في المعنى، كالتأكيد وتمكين المعنى من النفس وتثبيته."وعلى" للاستعلاء المعنوي.

تطرح هذه الآية صورتين من الاصطفاء لمريم؛ فما ماهية الاصطفاء الأول والثاني وما وجه الاختلاف بينهما؟ وتبدو الإجابة في ثنايا الآية نفسها، ومن خلال حرف الجر "على" الذي ينهض بمفرده ببيان هذه الاصطفائية، وذلك أنّ الاصطفاء الأول لم يرد فيه ذكر "على" وهذا دليل على أنه ليس اصطفاء طرف على آخر، بمعنى أنه اصطفاء عام، يشمل النساء والرجال ويعني: الاجتباء والاختيار وهذا الاصطفاء قد يكون في الإيمان، والعمل الصالح والخلق الطيب والسلوك القويم.

أما الاصطفاء الثاني، فقد جاء اصطفاء خاصاً لورود حرف "على" الذي نوّه عن اصطفائها على نساء العالمين، وبذلك أخرج عنصر الرجال من هذا الاصطفاء، ثم قصره من عنصر النساء على مريم البتول لكونها الأنثى الوحيدة التي كان إنجابها خرقا لسنن الإنجاب[107]. "يا مريم" تكرار النداء في هذه الآية من باب الإطناب.

وفي الحقل المعجميّ فعل الأمر "اقنتي" من القنوت، أي أديمي الطاعة، أو اخلصي العبادة. قَنَتَ: يَقْنُتُ. ﴿**وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنّ لله ورسُولِهِ وتَعْمَلْ صالِحًا نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ** ﴾[108].

وفي بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة المطيعة لله: قال تعالى: "**فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله**"[109]. ولنصغ إلى قوله تعالى "**يا مريم اقْنُتِي**"... لماذا وجّه الخِطاب بهذه الأداة؟ "أورد الزمخشري أن "يا" للبعيد، وأمّا نداء القريب فله أي والهمزة، وهذا يعني أنّ القريب قد ينزل منزل البعيد لغفلته، وهذه دلالة على أنّ مريم كانت ساهية عمّا أحيط بها من رعاية، ويقول أبو حيان الأندلسي: وفي نداء الملائكة باسمها الصريح تأنيس لها وتكريم"[110]. و"اقْنُتِي لـ" أفادت اللام "اختصاص الله وَحْدَه وإفراده بالعبادة والخضوع"[111]. قال طنطاوي: القنوت: لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخشوع والخضوع لله ربّ العالمين.

أي، قالت الملائكة لمريم: يا مريم أخلصي العبادة لله وحده وداومي عليها، وأكثري من السجود لله والركوع مع الراكعين أي ملازمة الطاعات [112].

واختلف المتأولون حول قوله تعالى: "**اسْجُدي واركعي مع الراكعين**". فالخِطاب "اقنتي واسجدي واركعي" فلماذا قدم السجود هاهنا على الركوع؟ "قال قوم: كان ذلك في شرع زكريّا وغيره، وقال بعضهم: الواو لا تعطي رتبة، وإنّما المعنى افعلي هذا، وهذا، وهذه الآية أكثر إشكالا من قولنا قام زيد وعمرو، لأنّ قيام زيد وعمرو ليس له رتبة. فإذا قلت: قام زيدٌ وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد. فالقول في ذلك أنّ مريم أُمرت بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة[113]. وقيل: قدّم السجود ها هنا على الركوع، لأنّ الواو لا توجب الترتيب، وقد

تقدم الخلاف في هذا في سورة البقرة، عند قوله تعالى: "**إنّ الصفا والمروة من شعائر الله**"[114]. أمّا "**واركعي مع الراكعين**". فقيل: معناه افعلي كفعلهم وإن لم تصلي معهم[115]. و"اركعي" قد عبّر عن الكلّ بالبعض، وأصله التواضع والانحناء خشوعاً لله.

وقال الأهدلي: "واسجدي" قدّم السجود رغم أنّه متأخر في أركان الصلاة للاهتمام به ولأنّه أدلّ على التذلل[116].

وهكذا، نرى إنّما قُدّم السجود على الركوع لأنّه أفضل أركان الصلاة، وأقصى مراتب الخضوع لله والتذلل والعبادة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله– صلّى الله عليه وسلم– قال: "**أقرب ما يكونُ العبدُ من ربّه وهو ساجد**"[117]. وقد يكون تقديم السجود من باب تقديم الأهم على المهم. أمّا قوله تعالى في سورة الحج: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[118] فإنّما عبّر عن الصلاة في هذه الآية بالركوع والسجود من باب إطلاق الجزء على الكل. أي صلّوا لأنّ الركوع والسجود من أركان الصلاة وهذا من باب "المجاز المرسل". وقد يكون أيضا إشارة إلى أنّ مريم كانت تسبق غيرها في الصلاة فتسجد قبلهم، ثم حين تتبتل يكونون راكعين فتركع معهم، والله أعلم.

وبعد؛ فإن بني إسرائيل جرت العادة لديهم أن يكون الأنبياء ذرية بعضها من بعض، فلمّا كان عيسى ابن مريم – عليه السّلام – من امرأة من بني إسرائيل دون أب، كان إيذاناً بانتهاء حقبة تسلسل الأنبياء في بني إسرائيل، وانقطاع النبوة فيهم.

امرأة فرعون وأم موسى

ذكر القرآن الكريم من الحِكَم عن بعض النسوة ما أصبح لها قيمة في الحياة الإسلاميّة؛ من ذلك ما نقله القرآن من سيرة "امرأة فرعون وأم موسى".

قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ ربّ ابْنِ لِي عِنـدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِـن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[119].

نقف وقفة مستفيضة عند "امرأة فرعون" التي كان لها التأثير الجمّ في مجريات الأحداث في تلك الحقبة التاريخيّة والسياسيّة والدينّية.

يثار هنا التسآل: من هذه المرأة؟ ما دورها في مجريات الأحداث؟ ولماذا ضرب الله مثلاً امرأة فرعون؟ ولماذا خاطبت ربّها؟ وفي أي جوّ وعصر كانت تعيش؟.

كان الجوّ مشبعاً بالبغي الذي تفرضه الألوهية الكاذبة، لتستأصل كلّ محاولة للتنفس في صدور المظلومين والمقهورين، وقد ضاعف هول هذا المشهد نبوءة ألقى بها أحد الكهنة المقربون إلى فرعون مفادها، أنّ وليداً من بني إسرائيل سيقوض عرشك، ويسلبك ملكك، ويغير دينك، وسيكون سبباً رئيساً لهلاكك، ويخرجك من قومك، فجن جُنون فرعون وتملكه طوفان عارم من البطش، ولم يكتف بكل ما أنزله على أولئك القوم من ألوان العذابات والبلاء والعبودية، فجادت قريحته، فأصدر أمراً إلى جلاديه، بقتل كلّ مولود يولد في تلك الأيّام. "وفي ظل تلك المرحلة الرهيبة، وتلك الأجواء الملبدة بسحائب الظلم، ولد "موسى" عليه السّلام يطوقه اليتم والفقر وتهدده مدية الجَزّار، وضاقت الأم الملتاعة بوليدها. فماذا تعمل لحمايته من القتل؟ وفي هذه الغُمَّة والكرب العظيم يأتيها أمر الله بألا تجزع"[120]، وأنْ تودعه في صندوق، وتُلقي به في اليمِّ "النيل"، هنا يتمثل عظم دور الأم، التي يجب أن نبحث عن الجنّة تحت تراب أقدامها. "أم موسى" الأم التي تكبر بصمتها وصبرها وإيمانها في حين يضع الله ولدها في رعايته. الخالق الذي بيده كلّ شيء، وكأنّ أمّ موسى تقول: "أُريده في رضاك أُريده في عينيك.. وأنت دبّر له الدور"، والله يلهم الأمّ الصبر.

قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[121]. إنّه إلهامٌ من الله قذفه في قلبها، وليس بوحي نُبُوة. خطاب ربّاني خاص موجّه إلى "أم موسى".

"**أنْ أرضعيه**" قُرِئ بكسر النون بعد حذف الهمزة على غَير قياس؛ لأن القياس من نقل حركة الهمزة، وهي الفتحة إلى النون كقراءة ورش، وهذا من باب نقل حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذفها"[122]. وأن حرف تفسير، وقيل حرف مصدري ونصب."أنْ أرضعيه" من لبن الروحانية، فقد حرم عليه مراضع الحيوانية أو الدنيوية[123].

"**وأوحينا إلى أم موسى**" أي ألقينا في قلبها، ومثله: "**وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوارِيّـِّنَ**"[124]، أم موسى كانت على يقين أنّ الله قادر على كلّ شيء، فاعتصمت بالله، فجاءها الخِطاب القرآني يرمي إلى بث السّكينة والهدوء في قلبها بقوله تعالى: "**إنّا رَادّوه إليك**"، "رادّوه" اسم فاعل مؤكد قوة عهد الله بإعادة المولود إلى أمّه، ويَدل على معنى حادث وعلى فاعله، والمعنى الحادث هو المتجدد بتجّدد الأزمنة؛ أي استمرار المعنى وتجدده، كما يحمل معنى الاستقبال، وهو وعد الله، حتّى تكون من المصدّقين بوعد الله.

إنّ النصّ القرآني آثر الجملة الإسمية على الفعلية في قوله: "**إنّا رادُّوه**" ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً، وذلك للاعتناء بالبشارة لأنّ الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام[125]. ولم تشر هذه

الكلّمة إلى ردّ الطفل إلى أمّه بوقت محدّد، أي غير مقيد بزمن معين. وهذا التركيب يدلّ على ثبات المعنى واستقراره وتأكيده."**ولا تخافي ولا تحزني**". هذا الخطابٌ يفيض رحمة بهذه المرأة وتقديراً يتسق ومجريات الحدث "لا تحزني" فيه وجهان: (أحدهما) لا تحزني على فراقِه، (والثاني) لا تحزني أن يُقْتَل موسى. "لا تخافي" لا ناهية جازمة "تخافي" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ولا الناهية للكفّ عن العمل، وفي هذا الخطاب مواساة من الله سبحانه لأمته.

وعلى المستوى الأسلوبيّ نجد التقديم والتأخير فتقدم الخوف على الحزن في هذا الخِطاب، وقد أشار الزمخشري إلى أنّ الفرق بينهما من حيث الانفعالات؛ "فالخوف غَمٌّ يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غمّ يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به"[126]. فتقديم (الخوف) على الحزن هدفه إبراز أهمية المتقدم.

أمّا التكرار في قوله تعالى: "**فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني**"، "فهناك اختلاف بين الخوفين؛ فالخوف الأوّل إنما هو من القتل، فيما لو صاح الرضيع وسمع الجيران صوته، فنمّوا عليه، (والثاني) الخوف من الغرق فيما لو وضعته في التابوت وحمله البحر إلى أعماقه" [127]. هنا نلحظ رمزية التقديم والتأخير وأثره في أهداف البيان المعجز في قوله: "**لا تخافي ولا تحزني**" قدم الخوف على الحزن ليبين الحالة النفسية لأم موسى.

"فإذا خِفْتِ" أداة الشرط تفيد معنى كثرة وقوع حالة الخوف على المواليد من الأخطار ويشير السياق إلى الشعور بحزن الأم وألمها ومحاولة مساعدتها في محنتِها.

وفي هذا السياق حكى الأصمعيّ، قال سمعت جاريةً أعرابية تنشدُ[128]:

استغفر الله لذنبـي كُلّـه قبّلت إنسانا بغير حِلّه
مثل الغزال ناعمًا في دلّه انتصف الليلُ ولم أصلّه

فقلت: ما أفصحكِ! فردّت عليه، أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: "**وأوحينا إلى أم موسى أنْ أرضعيه...**" فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

والمرويات تتوالى في هذه القصة العظيمة. حيث جاءت أم موسى بتابوت صغير ووضعته به، وألقته في اليمّ، ألقت هذا الرضيع المبارك، وتلقفته الأمواج بعيداً عنها تحمله يَمْنة ويَسْرة، فكيف تكون حالها؟ قال تعالى:﴿ **وأصبح فُؤادُ أمّ موسى فارغاً إنْ كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** ﴾[129]، أي: فارغا من كلّ شيء في الدنيا إلا من ذكر ولدها موسى، من شدة الحزن والهم وقد قذفته للمجهول، وفي التنزيل العزيز: "**أنْ اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم**"[130]، "والعرب تقول للخائف والجبان: "فؤادُه هواءٌ" لأنه لا يعي عزّما ولا صبرًا"[131]، قال تعالى: ﴿**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾[132].

"**لَوْلا أن رَبطنا على قَلْبِها**" عناية خاصّة بالربط على قلبها أي: ثبتاه وقويناه، ومع كلّ هذه العناية يسكب الله عليها صبراً، فتحتسب وتصبر، هذه علاقة الله مع بني آدم، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**﴾[133] وأصل الربط الشدُّ للتقوية والتمكين، ومنه نقول: "رابط الجأش"، والجأش: جأش القلب.

أما الدلالة المعجمية فالفؤاد: القلب، وقيل: وسطه، وقيل الفؤاد غِشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، جمع "أفئدة"، ورجل مفؤود: جبان ضعيف الفؤاد[134].

والقلب: مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط والجمع أقلب وقلوب وقد يعبر بالقلب عن العقل. وكأنّ القلب أخصّ من الفؤاد في الاستعمال، وقال بعضهم: سُمي القلب قلباً لتقلبه[135].

﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾[136]. أي التقطوه ليكون ولداً بالتبني؛ فكان عدوًا وحزناً، وقوله تعالى:" فالتقطه آل فرعون" نجد الفعل يشير إلى أنّ الالتقاط كان دون مطالبة أو رغبة، وما أرادوه ولكن إرادة الله شاءت. "كما نقول للذي كسب مالاً فأدّى إلى هلاكه: إنّما كسب فلان لحتفه، وهو لم يطلبْ المال للحتف، ومثله: فللموت ما تلد الوالدة، أي لم تلده طلباً أن يموت ولدها ولكن المصير"[137].

ونظرت "امرأة فرعون" إلى الطفل، نظرة حانية، استشعرت فيها كلّ مشاعر الأمومة بشفافيتها، و"صاحت" "**لا تقتلوه**" أي إذا كان قرة عين لي ولك يا فرعون فلا تقتلوه "ولا" الناهية والجملة الفعلية في محل نصب مفعول القول. وهكذا، جعل الله هذه المرأة سببا في نجاة موسى – عليه السّلام – فمن هذه السيدة العظيمة التي شرفها القرآن؟.

هي "**آسية بنت مزاحم**" زوج فرعون، المرأة المؤمنة الصابرة، الثابتة، التي عرفت طريق الإيمان، فلم تخف بطش فرعون وظلمه، فآسية امرأة فرعون آمنت بالله مخلصة له لائذة به وحده، وهي في بيت شرّ العباد، ورأس الكفر والإلحاد. وقد ورد ذكر هذه المرأة العظيمة مرتين في القرآن الكريم في سورتي "التحريم" و "القصص"[138]. "**وَضَرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون**" أي؛ وضرب الله امرأة فِرعون مثلاً.

قال تعالى – على لسان امرأة فرعون: ﴿**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[139] هذه الآية الكريمة تدلل على عظمة هذه السيدة الكريمة الخلق غرّاء المكارم.

أمّا استخدام تعبير "**لا تقتلوه**" فمن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظة الجمع، فيقال للرجلّ العظيم: انظروا في أمري.

وقولها؛ أي لا تقتله يا فرعون والخِطاب موجّه إلى فرعون أولاً فيه تعظيم له ثم لجماعة فرعون، واللافت أنّها كانت تخاطب زوجها كما يُخَاطَب الجّبارون، وهذا يكشف عمق الهوّة بينها وبين زوجها"[140]. ويرى المفسرون في هذا الخِطاب، أنّها خاطبت فرعون بصيغة التعظيم حصافة منها، ولباقة لإنقاذ الطفل من القتل، وليساعدها فيما عزمت عليه.

و"**عَسَى أن ينفعنا**" هذا التعبير يشيرُ إلى أنّ فرعون على الرغم من امتلاكه خزائن مِصر إلا أنّه يفتقرُ إلى الولد الّذي حُرم منه.

"**أن نتخذه ولداً**" الولد هنا لا إشارة فيه إلى البنوة، لذلك تجنبت آسية لفظ "ابن" خوفاً من غضب فرعون لأنه لا ينجبُ. "والابْنُ لا يكون إلا من صُلب الوالد"[141]، والجمع أبناءٌ وبنون.

قالت آسية لفرعون: هذا الغلامُ مسرة لي ولك، فرّد فرعون قرّة عين لك، فأمّا لي فلا. قال رسولُ الله – صلّى الله عليه وسلم –: "**والذي يُحْلف به، لو أقرّ فرعون بأنه يكُون له قرّة عين كما أقرت عين امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنّ الله حَرَمه ذلك**"[142].

"**قرة عين لي ولك**" قدمت نفسها على فرعون لعدم اطمئنانها إلى نية فرعون تُجاه الطفل. وهي تعلم أنّ الطفل لن يكون قرّة عين له. و"**عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**"، قدمت المنفعة على اتخاذه ولداً لاحتمالية رفض فرعون مبدأ التبني، وهذا بابٌ في التقديم والتأخير، وقد قدر الزمخشري مبتدأ محذوفاً أي: "هو قُرّة عين لي ولك"[143]. كما أنّ "قرة عين" كناية عن السرور بهذا الطفل.

والحري ذكره، "أنّ القول على لسان امرأة فرعون "**لا تقتلوه**" جاء بصيغة النهي الخارج إلى غرض التوسل أو الالتماس "وهذا يكشفُ طبيعة الأدوار الاجتماعيّة التي يمارسُها الرّجل في تلك الحقبة. فالرجل يعمد إلى صيغة الأمر كما في قوله تعالى في سورة يوسف: "أكرمي مثواه..."، أمّا المرأة، فتتوسل بصيغة النهي"[144] ونجده خطاب ملكٍ صاحب السلطة والنفوذ والسلطان، وأما زوجه فليست صاحبة سلطة. ولكن فرعون اقتنع برأيها أن يكون الولد قرّة عين لها وله.

"**وهم لا يشعرون**" جملة حالية، يجوز أن يكون العامل فيها "أوحينا"، أي وهم لا يشعرون أنّ هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يد موسى وبسببه.

هذه هي المرأة الذي امتلأ قلبها بحب "موسى"، وإرادة الله ومشيئته تقضي بأن يُربى موسى في قصر فرعون، وفي كنف آسية، وتحقق الوعد الرباني الصادق برجوع الولد إلى حِضْن أمه، قال تعالى: "**فَرَجَعْنَاكَ إلى أمِّكَ كي تقرّ عينُها ولا تَحزن**"[145]، وقال تعالى: ﴿**فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[146].

أمّا آسية فقد آمنت بموسى عليه السّلام وجاهرت بإيمانها منكرة على فرعون كفره وفساده، فأمر فرعون بقتلها، واستعذبت الآلام في سبيل الله وهذا نموذج للمرأة المؤمنة التي اختارت الجار قبل الدار، المرأة التي ضرب الله مثلا في قوة ثباتها على الحق، خاطبت الله تعالى وطلبت منه أن يبني لها بيتاً في الجّنة، فاستجاب دعوتها.

وقال تعالى جلّ ثناؤه: ﴿**إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾.

فعل الأمر (ابنِ لي)، و(نجّني من فرعون) و(نجّني من القوم الظالمين) يظهر الإيقاع القوي للأفعال المتكررة واتساق المعنى وثباته.

أمّا قولها "ابنِ – ونجّني – ونجنّي" فيدل على إيمانها لذلك تحدثت عن نفسها فقط.

ويُستَشف من قوله تعالى على لسان امرأة فرعون "**عِنْدك**" تجوز تعلقه بـ "ابن"، "كما أنّ "عِنْدك" "قدمت الظرف في الخِطاب على "البيت" لأنها اختارت الجار قبل الدار"[147]؛ وتغيير مواضع الألفاظ يرتبط بالمعنى النفسيّ الذي يريد أن يوصله القائل للمتلقي.

ويتجلى في قوله تعالى: "**إذْ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة**" صورة من صور الحبّ الإلهي؛ الحبّ الصادق المنزه عن المنافع، تراءت من خلال تقديم "عندك" على "بيتاً". وهذا التقديم أفاد أنّ امرأة فرعون قد آثرت جوار الله على نعيم الجنان؛ وهذا دليل على عظم المحبة وسموها، فهو شوق للمعطي لا للعطاء، وللجار قبل الدار.

"هذا فضلاً عن تجسيد قاعدة إيمانية: عقيدة "الولاء والبراء" الحب والكره في الله؛ فقد تبرأت من الزوج وتحدّت الطغيان وصبرت على الابتلاء، لترقى إلى مرتبة سامية من العطاء؛ إلى جوار الله "[148].

كما أنّ "عندك" يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من "بيتاً" كان نعته، فلما قُدّم نُصب حالاً. و"**في الجنّة**" إمّا متعلق بـ "ابنِ" وإمّا بمحذوف على أنه نعت لـ "بيتا"،و "ربّ ابن لي" حذفت أداة النداء "يا".

أمّا الخِطاب الذي جاء بفعل الأمر "ابنِ"، ونجّني، ونجّني"، "فطلب فعل الأمر على وجه الاستعلاء أي من الأعلى للأدنى على وجه الإيجاب والإلزام "[149]. ولكن صيغة الأمر هنا لا يُراد بها معناها الأصلي، وإنّما يُراد بها الدعاء، وكذلك كلّ صيغة للأمر يخاطب بها الأدنى من هو أعلى منه منزلة وشأناً فهي من باب الدعاء.

وقيل: لما قالت: "**ربّ ابن لي عندك بيتا في الجنّة**" أُريت

بيتها في الجنّة يُبْنى. وقيل: إنّه من دُرّة. وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظلّها الملائكة. والتسآل: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ نقول: طلبت القرب من رحمة الله، والبعد عن عذاب أعدائه، ثم بينت مكان القرب بقولها: "في الجنة" أو أرادت ارتفاع الدرجة والمقام في الجنّة، وأنْ تكون جنتُها من الجِنان التي هي أقرب إلى العرشِ وهي جنّات المأوى، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: "عِنْدك"، "وعندك بيتًا في الجنّة"، هذا يدل على إيمانها وتَصْدِيقها بالبعث، و"نجّني" قيل دعت آسية بهذه الدعوات فنجّاها الله أحسن نجاة. أحبت آسية لقاء الله سبحانه وتعالى على الرغم من غنى فرعون وقصوره الشامخة فطوبى لها طوبى.

وقوله تعالى: "**من فرعون وعمله**" وهو الكفر، وعبادة الأصنام، والظلم، والتعذيب بغير جُرم يُقترف". "**ونجني من القوم الظالمين**" من القبط كلّهم وقيل أهل مصر قاله الكلّبي[150]، وفي هذا الشأن قال تعالى: "كدَأْبِ آل فرعون". يقال: كدأبهم في الشّرّ من (دأب يدْأبُ دَأْبًا) [151].

وفي هذا السياق، نجد أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه في الشدائد والمحن والنوازل من سير الصالحين وتقواهم، وسنن الأنبياء والرسل.

ولا يفوتنا، أنْ نقولَ: إنّ القرآنَ ثري بظاهرة ضرب الأمثال كجانب مِفْصلي في الحثّ على الموعظة الحسنة، والنهي عن المنكر. "وهذا يتعلق بأسلوب الدعوة والتهذيب في القرآن الكريم وهو من أنجع وسائل التربية" [152] قاطبةً، وضَرْب المثل قد يكون عملياً بالأسوة الحسنة: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[153].

ونستشعر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط**﴾، وقوله في السورة نفسها: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ ربّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[154]، مقابلة بين مصير أهل الإيمان والتقى، ومصير أهل الكفر والطغيان.

بلْقِيس

بكسر الباء اسمها، كانت ابنة شراحيل بن مالك من نسل يَعْرب بن قحطان وكان أبوها ملكاً عظيم الشأن، ملك اليمن كلّها وقيل: ولد له أربعون ولداً، كانوا جميعا ملوكا، وكانت بِلْقِيس آخرهم، أمّا مملكتها (سَبَأ) فتقع في جنوب الجزيرة العربية باليمن، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾[155].

وبِلْقِيس امرأة عظيمة "أُوتيت من كلّ شيء" كناية عن عظمة ملكها، وتوافرت أسباب القوة والمنعة لها،وأُعطيت من الجند والخيل والمال. "ولها عرشٌ عظيمٌ"، جملة حالية تبين الحال التي كانت عليها بلقيس، وكانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله، متجاوزين عبادة الله، أمّا سيدنا "سليمان" فهو ملك حازم، أوتي من العلم الغزير، فكانت له القدرة على فهم لغة الطير والنمل وتسخير الإنس والجن، "**وورث سليمان داود**" أي ورث سليمان أباه في النبوة، والعلم والملك.

ويبدأ الخِطاب القرآني موجها إلى بِلْقِيس من سليمان عليه السلام، بعد إخبار الهدهد نبأ مملكة سبإ، قال تعالى على لسان الهدهد: "**وجئتك من سبإ بنبإ يقين**"، ويقرر سليمان إرسال كتاب إلى ملكة سبأ دون أنْ يكشف عن مضمون هذا الكتاب. وقرأت بِلْقِيس الكتاب، ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزّة أهلها أذِلّة وكذلك يفعلون**﴾[156].

"**وجئتك من سبأ بنبأ**" جناس ناقص لتبدل بعض الحروف، رسمها القرآن بإيقاع موسيقى منظم، له دلالته ومعناه. اللفظة الأولى (سَبَأ) المدينة الباهرة، "ونبأ" "النَّبأُ" الخَبَر، ويقال: نبأ الرّجل نَبْئا: أخبر، و (أنبأه) الخبَر وبالخبر: أَخْبَرَه"[157]. و(نبَّأه) الخبَرَ وبالخبر: خَبّرَهُ.

وتوافق الفواصل في كثير من الآيات القرآنية، لها وقع في النفس، وأثر في تجلية المعنى من حيث الاتساق والجرس. وقوله تعالى: "**إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم**"، فالعامّة: على كسر الهمزتين، وفي قراءة كسر الهمزتين؛ على الاستئناف جواباً لسؤال قومها؛ كأنهم قالوا: ممّن الكتاب؟ وما فيه؟ فأجابتهم بالجوابين. وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة: بفتح الهمزتين، وفي تخريج الفتح: أنّه بدل من "كتاب" وهو بدل اشتمال، أو بدل كلّ من كلّ، كأنه قيل: أُلقي إليّ من سليمان، وأنّه كذا كذا، وهذا هو الأصح.

وقرأ ابن أبي: "أنْ" من سليمان و"أنْ" بسم الله الرحمن الرحيم، بالتخفيف والتسكين[158]، وقوله تعالى: "**إنّه مِنْ سُلَيْمانَ وإنَّهُ بِسْمِ اللهِ**" على أنّه: أُلْقِيَ إليّ كتابٌ، إنه من سليمانَ وبأنّه بِسم الله، و"بسم الله" مقدَّمةٌ في المعنى. أي تلقت بلقيس الكتاب ثم جمعت قومها، وخاطبتهم بلغة قوية، واضحة المعاني. ويبدو أسلوبها في العرض تفسيرياً.

أمّا "أعزّه، أذلّة" في الآية الكريمة.. "**وجعلوا أَعِزّة أَهْلِها**

أذِلّة"، فإيقاع اللفظين قويّ باستخدام أصوات "الزاي" و"الذال" ثم الشّدّة في الزاي والذال ليدلّ على رسوخ الثوابت لدى بِلْقِيس في إقامة حكمها. و"أعزة"، "أذلة" طباق إيجاب، "يقول الباقلاني في ألفاظ هذا الخِطاب "كُلّ واحدة من الفواصل القرآنية تبدو كالنجم في علوه ونوره، وكالياقوت يتلألأ في شذوره، ثم تأمّل تمكّن الفاصلة وحسن موقعها، وعجيب حكمتها، وبارع معناها"[159].

أمّا قوله: "إنَّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم"، "إنّه"، "إنّه" فالضميران في الموضعين يعودان على الكتاب الذي ألقي إليها ويقال الضمير الأول للكتاب، والضمير الثاني للمضمون وإنْ لم يذكر أي باطن للكلام (بسم الله)، وفيه توكيد ب (إنّ) واستخدام الجملة الاسمية بتركيباتها لها دورٌ مؤثر في المعنى، والجملة الثانية فهي عطف على قوله سبحانه:"**إنّه من سليمان**".

وقوله تعالى على لسان بِلْقِيس: "**إنّه من سليمان**" فهي تودّ إعلامهم أن مرسل الكتاب هو سُليمان. أمّا قولها: "وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم"، فيبدو فيه استنكار بِلْقِيس هذا الاستفتاح الذي لا تعرفه هي ولا قومها، لأنّ أوّلَ من افتتح بسم الله الرحمن الرحيم سليمان[160]. المعنى:ألقي إليّ كتاب مضمونه ومقصوده النهي عن العلو والأمر بالانقياد[161] "**اَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**"، "وسُليمان" اسم أعجمي، وامتنع من الصرف للعلمية والعُجمة، ونظيره من الأعجمية[162] في أنّ في آخره ألفا ونوناً: هامان، وماهان، وسامان، وليس امتناعه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كعثمان. وسُليمان تصغير "سلمان"، والألف والنون في آخره للمبالغة خاصّة أنّ الاسم في العبرية ليس بألف ونون، مما يعني أنّ الألف والنون عربيتان لا أعجميتان.

"وكتابٌ كريمٌ" مكّرم مُعظّمٌ لكونه مختوماً، "وقيل: كرامة الكتاب خَتْمه"[163]، وقال بعض المفسرين "كريمٌ" لحسن ما فيه، أو كتاب شريف يشرّفُ صاحِبَه.

وفي قوله تعالى على لسان بِلْقِيس: "**قالت يا أيّها الملأ**" أي بعد أن ذهب الهدهد بالكتاب وقرأته، فلما رأت الخاتم ارتعدت وقالت لأشراف قومها وهو أسلوب ندائي يوحي بأهمية الموقف ورسميّة الدعوة، وهذا الأسلوب الذي يشتمل على أداة النداء مقرونة بصيغة "أيّها" يستخدم في المواقف الحاسمة، وجملة "قالت " مستأنفة استئنافاً بيانياً.

و"الملأ" في الحقل المعجميّ الرؤساء وأشراف القوم، "سمو بذلك لأنهم مِلاءٌ بما يُحتاج إليه"، و"الملأ" الجماعة وقيل: أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم"[164] فكأنها تقول يا أيّها الأشراف من قومي "**إنّي أُلقي إليّ كتابٌ كريمٌ**"، و"أُلقي فعل مبني للمجهول وبناء (أُلقي) لعدم الاهتمام بالفاعل، وهذا من حِنكة بِلْقِيس وحكمتها؛ فهي لم ترِدْ أن تَذْكُرَ من أَلقى إليها الكتاب، وذلك لتعلّم أصحابها أنّ لها مصادر معرفيّة لا يعرفونها، وهذا من سياسة الحيطة والحذر"[165] التي تنتهجها في حكمها، كما كانت بِلْقِيس قارئة عربية من قوم تُبّع، وكانت عالمة بملك سليمان، فأفصحت عن مصدره ومضمونه (إنّه من سليمان) استئناف وقع جواباً لسؤال مقدّر كأنه قيل لها ممّن الكتاب؟ وما مضمونه؟ فقالت: "إنّه من سليمان"، "وإنه بسم الله الرحمن الرحيم" وهذا من باب الإيجاز بحذف أكثر من جملة، كقوله تعالى في قصة سليمان والهدهد في إرساله الكتاب إلى بِلْقِيس، ومن غير حذف أن يقال: "فأخذ الهُدهد الكتابَ وذهب به إلى بِلْقِيس، فلمّا ألقاه إليها قرأته، واستأنفت كلامها "**يا أيّها الملأ أفتوني**"[166]، وقولها "**أفتوني في أمري**" أي أشيروا عليّ في هذا الأمر، فجعلت المشورة فتياً، وجاء الأمر على أصل الوضع "أفتوني" وجاء الرد واضحاً ماذا تأمرين؟

و"أفتوني في" أي أجيبوني في أمري "أفتى في"، أفتاه في الأمر: أبانه له، يقال: أفتيت فلاناً في رؤيا رآها، إذْا عبرتها له وأفتيته في مسألته: إذْا أجبته عنها، "وفي" للظرفية المجازية؛ جعل الأمر والرؤيا موضعاً للإفتاء[167]. أمّا قوله تعالى على لسان بِلْقِيس: "**ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون**"، أي " إبرام وفصل، في أي شيء متعلق بالملك لا يكون إلا بمحضركم وبموجب أرائكم. وفي هذا المعنى استمالة لقلوب قومها، لئلا يخالفوها الرأي"[168]. ومن حسن محاورتهم أوكل القومُ الأمر إليها وفيه دلالة على الطاعة المفرطة لها.

"**ما كُنتُ**" استخدام الفعل الناقص في صيغة الماضي للدلالة على ماضيها في اعتياد مبدأ الشورى وبأنها استمرت على ذلك في سياساتها[169]، وأنّها عادة متبعة عندها (وقاطعة)، (مُرسِلة)، (ناظرة) ألفاظ جيئت على صيغة "اسم الفاعل" وهي تفيد معنى ثبوت الصفة.

أمّا قوله تعالى – على لسان بِلْقِيس–: ﴿**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ* وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾[170].

"فناظرة" معطوفة على "مُرْسِلة"، و"بم" بمتعلق يرجع، والنظر هنا معلّق أيضاً، والجملة في موضع مفعول به. ولقد ذكر القرآن الكريم، تلك الحكمة عن بِلْقِيس التي حكمت سبأ حكمًا عادلا وكانت امرأة لبيبة عاقلة حكيمة "**قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**"، تلك الكلّمات حددت "بِلْقِيس" من يفسد البلاد ويذل العباد"[171]، في كلّمات معينة قليلة حققت المعنى الغزير الذي تقصده، أي إذا دخلوها عَنوة خرّبوها وأتلفوها وهذا يدلّ على خبرتِها الواسعة، والدُربة في التعامل مع الأحداث.

وسطوع حجتها كما أنّها خبيرة بأفانين القول.

"**والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**" في هذا المقام عرضوا عليها الحرب، ولكنهم ردوا إليها الأمر. فهي المعنية أولا وأخيرا بهذا القرار وتقديم الأمر دِلالة على أهميته، و"إلى" معناه انتهاء الغاية أي الشأن ينتهي إليك وموكول إليك، (إليك) متعلق بمحذوف خبر ويقدر مؤخراً ليفيد الحصر. أي التقدير: الأمر إليك.

"فانظري" النظر بمعنى التأمل والتفكير، و"ماذا" هو المفعول الثاني لتأمرين، والمفعول الأول محذوف لفهم المعنى، أي تأمرينا، "فانظري ماذا تأمرين" قدموا عملية النظر في الموضوع على عملية الأمر، لأنّ الأمرَ لا بدّ أن يسبقه التّبصر والتّفكر والتّدبر، ولعل هذا دليل على معرفة القوم بشخصيتها فهي لم تعتد أنّ تصدر حكما دون روية، وهذه محاورة حسنة، ولكنها كانت أكثر منهم حزماً ورأيًا وَعلمًا. فقالت كلّمتها المشهورة، التي اختصرت فيها خبرتها، "**قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون**" فيه تصديق وتوكيد لما وصفته من حالهم (حال الملوك).

"**وكذلك يفعلون** " هو من قول الله عزّوجل – والله أعلم – لأنّ بلقيس قد ذكرت أنّهم يفسدون فليس من تكرير هذا منها فائدة.

قال تعالى على لسان سليمان: ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾، ﴿ **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**﴾ ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ ربّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ**﴾ [172].

قرأ بعضُهم: "وكشفت عن سأقيها"، حيث عدلت الآية عن القاعدة اللّغويّة المطردة بتسهيل الهمز في (ساقيها) وهو الأصلُ، وهذا يمثل خروجاً على هذه القاعدة (بالهمز) لغرض بلاغيّ؛ هو الإيحاء بالتهكم أو السّخرية من صنيع الملكة (بِلْقِيس) في هذا الموضع، فكأنّ الآية تحاكي صوت الضاحك الساخر من فعلها بكشفها عن ساقيها حينما همت بدخول الصرح وحسبته لُجّة ماء بينما هو صرحٌ ممرد من قوارير زجاجية لامعة[173].

وفي قوله تعالى: "**وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين**"، يظهر "التجانس في تأليف الحروف دون المعنى، أي أنّ حروف الألفاظ يكون تركيبها من جنس واحد، والمعنى مختلفاً[174]، ويبدو الجناس متناغماً مع المعنى أي استسلمت مع سليمان طائعة لله ربّ العالمين.

ولمّا جاءت بلقيس سليمان –عليه السّلام– "**قيل لَها ادْخُلي الصَّرحَ**"، "وقيل" استخدم الفعل المبني للمجهول، لعدم التصريح بالقائل والأرجح أن يكون القائل هم الذين كانوا في رفقتها من جهة سليمان. ولقد تكرر هذا الفعل بهذه الصيغة، قال تعالى: "قيل أهكذا عرشك"، إذْ لا يتعلق غرض بالقائل والظاهر أنّ الذي قال هو "سليمان"[175].

أمّا قوله تعالى: "**قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون**"، فهذه من جملة المحاورة التي جرت بين سليمان وملئه، ولذلك لم يعطف. وهناك اتساق دلاليّ وتلاحم بين الألفاظ والمكونات في هذه المحاورة، انظر إلى المعنى المعجميّ في كلمة "نكّروا" أي غيِّروه، يُقال: نكّرت الشيءَ فتنكر، أي غيرته فتغير، "والفعل "نكّر" وهو فعل متعد، ورد في القرآن الكريم مركب مع حرف الجر، هو "نكّر+ لـ"، أي غيِّروا هيئته، كما يتنكر الرجلّ للناس، لئلا يعرفوه، واللام للاختصاص؛ لأنّ التنكير ليس مقصوداً في ذاته، بل هي المقصودة بهذا التنكير فاختص بها"[176]. أي غيّروه إلى حال تنكره إذْا رأته، فيختلط الأمر عليها، والتنكير ضد التعريف، والمقصود غيّروه عمّا كان عليه من الهيئة والشكل بحيث لا تعرفه.

وقوله "أتهتدي" معناه: أتهتدي لمعرفته أم لا. (أتهتدي، لا يهتدون) طباق سلب.

وفي قوله تعالى:"**قالت كأنَّه هُوَ**" فهي لتشبيه المؤكد، وتستخدم كأنّ عندما يكون الشبه بين المسند والمسند إليه قويًا حتى يكون التمييز بينهما صعبًا فالتشبيه بكأنّ أقوى من الكاف وأكثر بلاغة.

وهذا يتسق وقوله تعالى "**فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كَأنّه هو**". ففي قول بِلْقِيس: "كأنّه" عدولها عن مطابقة الجواب للسؤال، لأنّ السؤال أهكذا عرشك؟ والجواب: كَأنّه هو، "والمطابقة تقتضي أن تقول: "هكذا هو". وعبارتها "كَأنّه هو" عبارة مَن قرب عنده الشبه حتى شَكَكَ نَفسَه في التغاير بَين الأمرين، فكاد يقولُ " هو هو" وهذه كانت حال بِلْقِيس"[177] "كأنّه هو" " كأنّ" للتشبيه نحو كأنّ زيداً أسدٌ، إذْ أصلها " أنّ " زيدت عليها الكاف فهي وإن أفادت معنى بين المسند والمسند إليه وهو معنى التشبيه، إلا أنّ إفادتها للتوكيد هو الأصل فيها[178].

وهذه العبارة تدل على رجاحة عقلها وفطنتها، وأنّها أصابت في جوابها، قال الحسن بن الفضل: شبهوا عليها فشبهت عليهم.

أمّا قوله تعالى "**فلمّا جاءت**" فدلّ على أنّ الملكة لما بلغها ما أجاب به سليمان على رسلها أزمعت الحضور بنفسها. أمّا استخدام الفعل الماضي "جاء" فلبيان انقطاع الحدث وارتباطه بزمنٍ محدّد. وقوله تعالى على لسان سليمان: "**تنظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون**" عبارة أراد بها سليمان – عليه السّلام – اختبار ذكائها وفطنتها ونجحت في ذلك.

أمّا هذا التركيب باستخدام همزة الاستفهام "**أهكذا عرشك**"، فبمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك الذي تركته ببلادك، ولم يأت التركيب "أهذا عرشك؟" بل جاء بأداة التشبيه[179] لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو مقصود بالتنكير.

بِلْقِيس لم تجزم بأنه هو ولا نفته النفي القاطع، بل أبرزته في صورة تشبيهية تعبر عن دهشتها والتباس الأمر عليها، "كأنه هو"، وقد يكون من باب حسن التخلّص لأنها لم تكن متيقنة من إجابتها، أي "كأنّه هو عرشي في الشكل والوصف" ويسمى "مرسلا مجملا".

إذن، عرض عليها سليمان عرشها، وكان في بِلْقِيس ثبات وعقل ودهاء ولبّ، فقالت: "كأنه هو" تحرزٌ فصيحٌ، أمّا الصرح:فبيت واحد يبنى منفرداً ضخماً طويلا في السماء؛ هو القصر ؛ وقيل: هو كلّ بناء عال مرتفع ؛ وفي التنزيل " **إنّه صرح ممرد من قوارير**"؛ والجمع صُرُوح. قال الزجّاج في قوله تعالى:" **قيل لها ادّخلي الصّرح**"؛ قال: الصّرحُ، في اللغة القصر والصّحن [180]، كما في قوله تعالى: "**فاجْعَل لِي صرحاً**"[181].

ودخلت بِلْقِيس مملكة سليمان، ووقفت على عظمة قدرة الله وصناعته، فبهرها ما رأت من آيات الله المعجزات، وعلمت أنه مؤيدٌ من الله وصادق فيما دعاها إليه، هنالك، اعترفت أنها ظلمت نفسها بالشرك وأسلمت لله ربّ العالمين، وتبوأت درجة التحلّي والتخلّي عن الشرك وعبادة الشمس، بالإيمان "**قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربّ العالمين**".

ودلالة هذه الكلّمات "**ربّ إنّي ظلمت نفسي**" الإقرار بالظلم "الإشراك بالله وعبادة الشمس"، والمنادى (ربّ) دون أداة النداء دلالة على إحساسها بحميمية العلاقة مع الله وتسليمها له. أمّا "**وأسلمت مع سليمان**" فهو جناس الاشتقاق، الذي يحمل إيقاع الفرح والسعادة بهذا الدين الجديد، وفيه ردّ على قوله تعالى – على لسان سليمان: "**وأُتوني مسلمين**" وقد وقع ذلك بإرادة الله كما يدلّ عليه قوله تعالى: "**وأسلمت مع سليمانَ**" والمراد هنا أنّها دخلت في الإسلام كما أسلم سليمان.

"**وأسلمت مع سليمان**" مع ظرف، وقيل حرف بني على الفتح وأمّا إذْا سُكِّنت العين فلا خلاف أنّه حرف جاء لمعنى[182]، والصحيح (مع) ظرف يدل على معنى الصُّحبة، أي اختيارها صُحبة الأنبياء.

وصفوة القول، عندما انكشفت الحقائق أمّام الملكة بِلْقِيس دخلت في الإسلام مؤمنةً بالله ربّ العالمين، ودل تصرفها على أنّها ملكة سياسية بامتياز حكيمة آثرت السلم على الحرب، وأنّ ديدنها الشورى والمشاورة، وهذا يتساوق وقوله تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[183]، وقد مدح الله الفضلاء بقوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾[184].

الخاتمــة

وبعد،فقد سعت الدراسة إلى تسليط الضوء على خطاب المرأة اللغوي في القرآن الكريم، وتبين مدى حرص الخطاب على طبيعة المرأة وإنسانيتها، ومراعاة خصوصيتها فقد اهتم بها وأولاها الرعاية والتقدير، ورفع من شأنها، وعضّدها في كثيرٍ من المواقف، وبث في نفسها الطمأنينة والهدوء والسكينة كما صوّر لنا أدباً جمّاً مع الخالق.

وكان الخِطاب يتراوح بين نبرة حازمة واضحة وحاسمة كما أنّها رحيمة في الوقت ذاته. واعتمد السرد القصصيّ وأسلوب الحوار والتكرار والدعاء المبني على عدسة لغوية متمكنة من أدواتها وقدّم لنا صورة المرأة المؤمنة القانتة بكل تجلياتها. كما أبرز فيه مكانة المرأة في القرآن ومنزلتها العالية، وما حباها الله من حقوق وقدرات وملكات وكرامات.

وهو خطاب ربانيّ جاء في حقب مختلفة ليثبت أنه ليس متأخراً عن زمانه، بل يستند في أصوله إلى أنّه منهج لكلّ زمان ومكان.

ولوحظ، أنّ خِطاب المرأة القرآني يتفاوت تبعاً للمستوى الثقافي والحضاري، وباختلاف شرائح الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويتفق ونفسية المخاطب، وقد رأينا تمايزًا في أسلوب الخِطاب تبعا للانسجام بين السياق اللّغويّ والمقاميّ، فكل كلمة وردت في السياق القرآني لها وظيفتها الدلالية ولا يمكن استبدالها بكلمة أخرى، وهذا يدعونا إلى القول: إنّ مستويات الخطاب القرآني من أرقى نصوص اللّغة العربيّة قاطبة من حيث التركيب والأسلوب وترابط النصّ وتماسكه.

الهوامش

(1) سورة التوبة، الآية (71).
(2) سورة النحل، الآية (97).
(3) سورة آل عِمْران، الآية (195).
(4) سورة الإسراء، الآية (70).
(5) سورة الممتحنة، الآية (12).
(6) سورة النمل، الآية (32)، (33).
(7) سورة القصص، الآية (26).
(8) سور يوسف، الآية (21).
(9) سورة المجادلة،الآية (1).
(10) سورة التحريم، الآية (11).
(11) سورة النساء، الآية (4)
(12) سورة النور، الآية (33).
(13) سورة الطلاق، الآية (1).
(14) ابن منظور، لسان العرب، مادة (خطب). وانظر الخولى، معجم علم اللغة النظري، مادة (خطب).
(15) ابن هادية،القاموس الجديد، ص 313.
(16) معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة، ص 194.
(17) العموش، الخِطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النصّ والسياق، ص 23.
(18) سورة ص، الآية (20).
(19) سورة ص، الآية (23).
(20) سورة النبأ، الآية (37).
(21) الصابوني، صفوة التفاسير، م3، ص 510.
(22) سورة آل عِمْران، الآية (33).
(23) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، ص 98.
(24) المرجع نفسه، ص 98.
(25) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص 103.
(26) سورة آل عِمْران، الآية (35).
(27) سورة سبأ، الآية (19).
(28) سورة الحج، الآية (18).
(29) الالوسي، روح المعاني، م2، ص 128.
(30) ابن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج7.
(31) القرطبي، مرجع سابق ، ص 101.
(32) ابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ص 194.
(33) محمّد، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ج1، ص 576.
(34) الأندلسي، مسائل النحو والصرف في تفسير البحر المحيط، ص 616.
(35) العطوي، خطاب امرأة عمران في القرآن، ص 303.
(36) سورة آل عِمْران، الآية (36).
(37) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص 385.
(38) الزمخشري،السابق، ص 383-384.
(39) الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزّيز، ج3، ص 384.
(40) العطوي، مرجع سابق، ع7، ص 313
(41) سورة الرعد، الآية (8).
(42) الصابوني، السابق، م1، ص 200.
(43) حسّان، البيان في روائع القرآن، ج1، ص 116.
(44) العوفي، قضايا الجملة الخبرية في كتب وإعراب القرآن ومعانيه حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 430.
(45) أبو الفتوح، أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، ص 135-136.
(46) الألوسي، مرجع سابق، ج2، ص 131.
(47) سورة الأنفال، الآية (47).
(48) المنذري، مختصر صحيح مسلم، الحديث (1619)، ص 189.
(49) العطوي، السابق، ص 307-308
(50) مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، ط3، ص 79.
(51) سورة آل عِمْران، الآية (37).
(52) الصابوني، السابق، م1، ص 201.
(53) سورة آل عِمْران، الآية (37).
(54) المنذري،السابق، ط3، الحديث (1667)، ص 202.
(55) الشمايلة، خِطاب المرأة في القرآن الكريم، ص 39.
(56) سورة آل عِمْران، الآية (37).
(57) سورة آل عِمْران، الآية (42).
(58) سورة آل عِمْران، الآية (43).
(59) سورة آل عِمْران، الآية (45).
(60) سورة مريم، الآية (16).
(61) سورة التحريم، الآية (12).
(62) سورة النساء، الآية (171).
(63) الصابوني، السابق، م1، ط4، ص 202.
(64) سورة مريم، الآية (20)، (21).
(65) سورة آل عمران، الآية (154)
(66) سورة آل عمران، الآية (45) (46) (47).
(67) محمّد، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ج1، ص 512.
(68) سورة آل عِمْران، الآية (47)، (40).
(69) حسان، السابق، ص439.
(70) النجفي، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ص 283.
(71) سورة يوسف، الآية (29).
(72) السيد، مسائل النحو والصرف في تفسير البحر المحيط، ص 29.
(73) طنطاوي، التفسير الوسيط للقران الكريم،م9، ص 25.
(74) سورة البقرة، الآية (236)، (237).
(75) ابن قتيبة، السابق، ص 273.
(76) ابن منظور، لسان العرب، (نبذ).

(77) سورة آل عمران، الآية (47).
(78) سورة مريم، على التوالي الآية (23)،(24)، (25)،(26).
(79) ابن يوسف، احمد، الدّر المصون، ص 579.
(80) المراغي، تفسير المراغي، ص39.
(81) حسّان، السابق،ج1، ط2، ص 94.
(82) سورة ص، الآية (22).
(83)) سورة يوسف، الآية (16)، (17).
(84) سورة الفجر، الآية (24).
(85) سورة الكهف، الآية (42).
(86) الأهذلي، مرجع سابق، م5، ص11.
(87) الجمال، التفسير الفريد للقرآن المجيد، م5، ص 1841.
(88) الزمخشري، السابق، ج3، ط2، ص 14.
(89) أبو سويلم، النخلة في الشعر الجاهلي، ص 102.
(90) ابن كثير، السابق، ص 118.
(91) سورة القصص، الآية (32).
(92) الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، ط1، ص 17.
(93) محمد، السابق، ج1، ص365.
(94) سورة الحج، الآية (15).
(95) البصري، النكت والعيون تفسير الماوردي، ج2، ط1، ص 523.
(96) ابن يوسف، مرجع سابق، ص59.
(97) الجارم، البلاغة الواضحة، ط21، ص 113.
(98) حسّان، السابق، ص 294، 295.
(99) سورة طه، الآية (5).
(100) الصابوني، صفوة التفاسير، م1، ص25.
(101) عودة، رجاء محمد، النظم القرآني، ص59.
(102) الكيلاني، ايمان، ظواهر اسلوبية في سورة الرحمن، ص107،106.
(103) سورة مريم، الآية (27)، (28).
(104) سورة آل عِمْران، الآية (42)، (43).
(105) حسان، السابق، ج1، ط2، ص 207.
(106) ابن يوسف، احمد مرجع سابق، ج3، ص 170.
(107) عودة، النظم القرآني،ص68.
(108) سورة الأحزاب، الآية (31).
(109) سورة النساء، الآية (34).
(110) الشمايلة، السابق، ص 62.
(111) محمد، السابق، ج2، ص 239.
(112) طنطاوي، مرجع سابق، م2،ص103.
(113) الأندلسي،السابق، ج3، ص 84.
(114) سورة البقرة، الآية (158).
(115) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر عبدالله بن عبد المحسن التركي، ج13، ط1، ص 129.
(116) الأهدلي، البرهان في اعراب آيات القران، ط1، م2، ص 44.
(117) الألباني، مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، الحديث (299)، ص 85.
(118) سورة الحج، الآية (77).
(119) سورة التحريم، الآية (11)
(120) المجذوب، قصص وعبر، نظرات تحليلية في القصة القرآنية، ص 121.
(121) سورة القصص، الآية (7)، سورة القصص (وتُسمّى سورة موسى).
(122) السيد، السابق، ج3، ص 201.
(123) النيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ص334.
(124) سورة المائدة، الآية (111).
(125) الصابوني، السابق، م2، ط4، ص 428.
(126) الزمخشري،، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، انظر محمّد عبد السلام شاهين، ج2، ط3، ص 280.
(127) المرجع نفسه، ص 380.
(128) البصري، السابق، ج3، ص 217.
(129) سورة القصص، الآية (10).
(130) سورة طه، الآية (39).
(131) ابن قتيبة، السابق، ص 329.
(132) سورة إبراهيم، الآية (43)
(133) سورة الأنفال، آية (11)
(134) ابن منظور، لسان العرب، مادة فأد، ص1042.
(135) ابن منظور، لسان العرب، قلب، ص687.
(136) سورة القصص، الآية (8).
(137) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه،ج4، ص133.
(138) سورة التحريم، الآية (11).
(139) سورة القصص، الآية (9).
(140) القُرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر سالم مصطفى البدريّ، ج13، ص 168.
(141) ابن منظور لسان العرب، مادة (بني) ص270.
(142) البصري، السابق، ص 218.
(143) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 381.
(144) الشمايلة، السابق، ص 154.
(145) سورة طه، الآية (40).
(146) سورة القصص، الآية (13).
(147) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج8، انظر علي شيري، ص 647.
(148) عودة، رجاء محمد، مرجع سابق، ص61،60.
(149) الجارم، السابق، ط19، ص 179.
(150) البصري، السابق، ج4، ط1، ص 268.
(151) البصري، معاني القرآن، انظر فائز فارس، ج1، ط1، ط2، ص 194.
(152) حسّان، السابق،ج2، ص 289.
(153) سورة آل عِمْران، الآية (159).

(154) سورة التحريم، الآية (10)، (11).
(155) سورة سبأ، الآية (15).
(156) سورة النمل، على التوالي، الآية (29)، (30)، (31)،(32)، (33)، (34).
(157) أنيس، المعجم الوسيط، مادة (نبأ).
(158) سالم، معجم القراءات القرآنية، ص 350.
(159) الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ص 233.
(160) البصري، النكت والعيون، ج3، ط1، ص 196.
(161) الأهدلي، مرجع سابق، م5، ص213.
(162) الأندلسي، مسائل النحو والصرف في تفسير البحر المحيط، ج2، ص 418.
(163) مخلوف، السابق، ص 483.
(164) ابن منظور، لسان العرب (ملأ).
(165) الألوسي، روح المعاني، ج1، ط1، ص 190.
(166) عتيق، علم المعاني، ط2، ص 201.
(167) محمّد، السابق، ج1، ص555.
(168) المنصوري، المقتطف من عيون التفاسير، م4، ط6.
(169) الأندلسي، البحر المحيط، ص 70.
(170) سورة النمل، الآية (34)،(35).
(171) حسن، المرأة في التصور الإسلامي، ص 98.
(172) سورة النمل، الآية (38)، (41)،(42)، (44).
(173) الهنداوي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ص 93.
(174) عتيق، علم البيان، ص 186.
(175) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج18، ص 273.
(176) محمد، السابق، ص 472.
(177) أبو الفتوح، السابق، ص 145.
(178) العُوفي، قضايا الجملة الخبرية في كتب إعراب القرآن ومعانيه ،ج2، ط1،ص 554.
(179) الصابوني، السابق، م2، ص 411.
(180) ابن منظور، لسان العرب (صرح).
(181) سورة القصص، الآية (38).
(182) الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزّيز، انظر عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ط1، ج11، ص214.
(183) سورة آل عِمْران، الآية (159).
(184) سورة الشورى، الآية (38).

المصادر والمراجع

ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد، (توفى 577هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق جودة مبروك محمد، 2004م، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة.

ابن عاشور، محمد الطاهر، (1296 هـ – 1393 هـ)، تفسير التحرير والتنوير، ج18، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، (توفى 276 هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق أحمد صقر، 1958م، مكتبة ابن قتيبة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (توفى 774 هـ)، تفسير القرآن العظيم، ج3، إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن الكريم، تحقيق علي شيري، 1995م، ج3،ج8، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ابن هادية،علي وآخرون، 1979م، القاموس الجديد، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

ابن يوسف، أحمد، المعروف بالسمين الحلبي، المتوفى 756 هـ، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد محمد الخرّاط، ج7، دار القلم، دمشق.

أبو الفتوح، محمد حسين، 1995م، أسلوب التوكيد في القرآن الكريم،ط1، مكتبة لبنان.

الألباني، محمّد ناصر الدين، 1979م، مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، ط3، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود، روح المعاني،تحقيق علي عبد الباري عطية، 2001م، ج1،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان.

الأندلسي، أبو حيّان، (توفى 745 هـ)، تفسير النهر الماد من البحر المحيط، تحقيق عمر الأسعد، 1995م، م4، ج4، ط1، دار الجيل، بيروت.

الأندلسي، أبو حيّان، مسائل النحو والصرف في تفسير البحر المحيط مدخل الى دراسة نحو النص، تحقيق عبد الحميد السيد، 2002م، 2003م، ج2، ط1، دار الإسراء للنشر، الأردن، عمان.

الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق عادل أحمد الموجود، 2001م، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الأندلسي، أبو محمّد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، مديرية الشؤون الإسلامية، 1977م، م3، ج3، الأوقاف والشؤون الإسلامية،المملكة المغربية.

الأندلسي، أبو محمّد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبدالله إبراهيم الأنصاري، 1985 م، ج11، ط1.

الأهدلي، أحمد ميقري بن أحمد حسين شميلة،2001 م، البرهان في إعراب آيات القرآن،ط1،م2، م5، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
أنيس، ابراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، ط2، دار إحياء التراث العربي.
الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، (توفى 430 ه)، إعجاز القرآن، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، 1991م، ط1، دار الجيل، بيروت.
البصري، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعيّ، (توفى 215 ه)، معاني القرآن، صنّفه الأخفش الأوسط، تحقيق فائز فارس، 1979 – 1981 م، ج1،ط1، ط2.
البصري، أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، (توفى 450 ه)، النكت والعيون تفسير الماوردي، تحقيق خضر محمد خضر، راجعه عبد الستار أبو غدة، 1982م، ج2، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطابع مقهوي، الكويت.
الجارم، علي ومصطفى أمين، 1969م، البلاغة الواضحة، ط21، دار المعارف، مصر.
الجمال، محمد عبد المنعم، التفسير الفريد للقرآن المجيد، م5.
حسّان، تمّام، 2000م، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنصّ القرآني،ج1، ط2،عالم الكتب، القاهرة.
الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، المتوفى 1069ه، حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، ضبطه وخرج آياته وحديثه عبد الرزاق المهدي، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
الخولي، محمد علي، معجم علم اللغة النظري.
الزجّاج، أبو اسحق إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق عبد الجليل عبده شلبي، ط1،ج4،عالم الكتب، بيروت.
الزمخشري، محمود بن عمرو، (المتوفى 538 ه)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، حققها وخرّج أحاديثها عبد الرزاق المهدي، 2001 م، ج1، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، 2003 م،ج2، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
سالم، عبد العال وآخرون، 1988 م، معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء، ج4،ط2، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت.
الشمايلة، غدير سالم،2007م، خطاب المرأة في القرآن الكريم، دراسة بلاغية، رسالة دكتوراة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنيّة، عمان.
الصابوني، محمد علي، 1981م، صفوة التفاسير، م1، ط4، دار القرآن الكريم، بيروت.
طنطاوي، محمّد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، م2، م9، دار المعارف، القاهرة.
عتيق، عبد العزيز،1970م، علم المعاني، ط2، دار النهضة العربية، بيروت.
عتيق، عبد العزيز، علم البيان، ط2، دار النهضة العربية، بيروت.
العموش، خلود، 2005م، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النصّ والسياق " مثل من سورة البقرة "، ط1، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن.
العوفي، معيض بن مساعد، 1983م، قضايا الجملة الخبرية في كتب وإعراب القران ومعانيه حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ج2، ط1، لم تذكر دار النشر.
القرطبي، محمد بن أحمد، (توفى 675 ه)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القران، تحقيق عبدالله بن المحسن التركي، 2006م، ج5، ج13، ط1، مؤسسة الرسالة.
القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القران، تحقيق سالم مصطفى البدري، 2000 م، ج13، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
المجذوب، محمّد، قصص وعبر، نظرات تحليلية في القصة القرآنية، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
محمد، محمد داود، 2002 م، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى في القران الكريم، ج1، ج2، دار عريب للنشر، القاهرة.
مخلوف، حسنين محمد، 1987م، صفوة البيان لمعاني القرآن، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط3، شركة ذات السلاسل، الكويت.
المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، خرّج آياته وأحاديثه باسل عيون السود، الأجزاء 16–17–18، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
المنذري، الحافظ، مختصر صحيح مسلم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، 1979م، ط3، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت.
المنصوري، مصطفى الحصن، المقتطف من عيون التفاسير، حققه محمد علي الصابوني،1996م، م4، ط6، دار القلم، دمشق.
النجفي، محمد جواد، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ج1، ط1، مكتبة الوجداني، قُمْ.
النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القميّ، المتوفى 728ه، تفسير غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه زكريّا عميرات، م5، ج17، ج23، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
الهنداوي، عبد الحميد، 2004م، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة.

بحوث في دوريات

أبو سويلم، أنور، 1991م، النخلة في الشعر الجاهلي، مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، م6، ع2، مؤتة، الأردن.
حسن، علاء الدين معصوم، 2004م، المرأة في التصور الإسلامي، المجلة الثقافية، ع62، الجامعة الأردنية، عمان.

العطوي، عويض بن حمود، 2009م، خطاب امرأة عمران في القرآن، دراسة بلاغية تحليلية، ع7، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جدة، المملكة العربية السعودية.
عودة، رجاء محمد، 1999م، النظم القرآني وأثره على مقاصد التنزيل، مجلّة جامعة الملك، م11، الآداب(1)، الرياض.
الكيلاني، إيمان، 2003، ظواهر أسلوبية في سورة الرحمن، أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، م21، العدد1، اليرموك، الأردنّ.

The Discourse of Woman in The Holy Koran

Hala H. Beedas and Fatma M. Al-Elaimat*

ABSTRACT

This research attempts to investigate the discourse of women in the holy Koran, and shed light on the aims of their discourse, and the situations in which it was set by "woman's discourse", we mean the speeches that the woman delivered or were addressed in.

In the context of language study, the essence of the discourse and its characteristics cannot be explained unless phonological, morphological, syntactical and semantic significances are stressed.

The examples of women in this study are: Um Emran, Lady Marian (may peace be upon her), Asia (the spouse of pharaoh), Um Mousa and Bilkees).

The research reveals some of the sublime Oratory styles of these women, especially at the linguistic level.

We hope that the reader would find additional value in the discourses original through this research.

Keywords: Discourse; Linguistic Discourse.

* Center of Languages, The University of Jordan. Received on 25/1/2011 and Accepted for Publication on 23/4/2012.